المجموعة القصصية

تلاكيك المزاجنجية



إسم الكتاب:	تلاكيك المزاجنجية
إعداد:	أحمد الغندور
رقم الإيداع:	2018 / 21989
الترقيم الدولي:	ISBN : 978 - 977 - 852 - 057 - 6





المجموعة القصصية

تلاكيك المزاجنجية

أحمد الغندور

تصدر عن:



ت: ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

١ ميدان التحرير - القاهرة - مصر

الإشراف علي النشر:

طارق رمضان فارس

الطبعة الأولى/ ٢٠١٦

إهداء إلى

- تلك الأميرة التي وهبتني السراء بدموعها (أمي)
- ذلك الرجل الذي استبشر بي خيرا منذ ولادتي (أبي)
- المُنقذ الذي لم يبخل عليَّ بما علمته الحياة (أخي)
- من وهبتاني أيام شبابهما المُفرحة (خالتيَّ)
- بسمة حدود البهجة في وجهي (بوسي)
- إليك يا جدي، يا من علمتني الضحكة ببركتك دوما
- صديقي موسى، سأظل ممتنا لك على مساعدتك النبيلة

المقدمة

هذه الأسطر صغيرة العدد تكفي لبسط بعض المشاعر الجذرية التي وهبها القدر للمرء في هيئة خبرات حفرت الكثير من التنبؤات في أذهانٍ خُصصت ظروف الأحداث بداخلها من أجل أن تصبح حقبة روحية لا تُنسى.

حيرة الظلم

. ما بك يا أخي؟ ما الذي جعلك تفكر كثيرًا وتسرح حتى عن لعبك بالساحرة في البقعة الخضراء؟

أعذرني صديقي فأعتقدت أن الساحرة هي من وجهت قلبي لخيرٍ ساعدتني على الحُلم به ولكنها تركتني أتوه في مُكره.

. لمَ تقول ذلك؟ ومن تلك الساحرة؟

أتجلس معي لأحكي، أم أنك تجدني حائرًا حزينًا بين أحلامي الضائعة؟

. بالطبع سأجلس... فاسرد عليَّ كل ما تشاء قوله ولكن من البداية.

سأحكي وقلبي يبكي على ذكرى رؤيتي إليها، عندما شعرت بما تحدث الخلق عنه في شغفٍ وهو إرتياح النفس لوجه أجمل خلق الله، فنظرت لها بعد أن ألتقت أعيننا وكأني أُحدثها وأُعرفها بنفسي وهي تُعرفني بقلبها، وحينها تيقنت من امتلاكها لنعمة بحثت عنها دائمًا ولكني كنت أعرف أني لا أستحقها ولذلك أدرت وجهي خجلًا من أن أظلمها... فغضبت مني وأبعدت نظراتها المهذبة حتى تعاقبني على ما فعلت.

راحت الأفكار تراود مشاعري المحاصرة بحيرتي فتعقبتها بعيناي مرة ثانية وظلت ملامحها تتساءل باستغراب قائلة:

من أنت وماذا تريد؟

فردت نظرتي مسرعة:

أنا سعيد الحظ من قدره الله وأعطاه قلبًا نبض في وقتٍ دعا فيه بحسن إختيار روحه.

فوجدت نفسي أتحمل ما يُغضبني كل يوم، كطائرٍ رأى من اقترب لسلب قُوته الذي سعى إليه منذ أن فُتحت عيناه لإختيار مصيره، وصوت ما يسألني غاضبًا هل يُعد ذلك خيانة أم أن هذه الحياة تجبرك على تقبل الغيرة؟... ولكن كلما مر الوقت أثبتت لي يومًا بعد يوم صفاء أخلاقها وجمال روحها، ويشهد وحده المولى عز وجل أني لم أدع لحظة تمر دون التفكير فيها وكأن عمري سينتهي إن توقفت عن فعل ذلك... فصدقني لم يفُتني ذِكرها بقلبي حتى الآن ولا أعلم إن كنت سأنساها يومًا أم سيظل عقلي يُذكر عيناي بكل نعمة من ملامحها.

وعندما قررت أن أتحدث إليها لتحقيق أمنية بدء السير في هذا الطريق القاسي، حروفها كانت قليلة لم يظهر على وجهها علامات التعجب أو الفرحة أو حتى الاستياء... وبعد أن أنتهت أسئلتي نظرت لي دون أن تتحدث فلم أستطع إبعاد وجهي أو حتى إجبار شفتاي

على إظهار إبتسامتها فعدت لبيتي متعجبًا وفرحًا من تلك اللحظة التي أنتظرتها منذ بداية حيرتي.

أُجبرت على التريث لفترة لم أشعر بطولها ولكني شعرت بقسوتها لبعدي عن رؤية زهرتي، حتى أُتيحت الفرصة لي مرة أخرى وكلما ازداد عمر المرء ازدادت المسافة بينه وبين حلمه النبيل... شدة لهفتي لما رغبت أدرجتني لفعل ما لم ولن أرضى على القيام به لو عاد بي الزمن لتنفيذه، فذهبت إلى عابرةٍ طالبًا منها أن تجد لي طريقة للوصول لملكتي أو حتى سماع ريح أنفاسها فوافقَت وأحترمت رغبتي ولكن خبر إحباط هذه المحاولة لم يدُم طويلًا لتُبلغُني برفض روحي بلقائي أو حتى التفكير فيما يولد بالقلب بغير توقع.

شعرت بالندم لتصرفي فمن أعطاني الحق لفعل ذلك؟ تلك إهانة لمن بحثت عنها في أحلامي وذلك ليس بعرضٍ لشراء القلب كما يشتري المرء متاعه... حاولت الاعتذار ولكن لم يحالفني قدري فكنت أعلم أنّي إذا حصلت على تلك الفرصة لقطعت لساني حتى يصبح قلبي هو سفير مشاعري الصادقة.

فاضطررت القيام بما تعودت عليه وأحببته وهو النظر إليها فقط حتى يهدأ شغفي، وما كان يُفرح نفسي الصامدة هي نظراتها إليَّ ولكن الواحدة منها عمرها كان أقصر من فترة تلذذ المرء بنجاحه... يا صديقي مشاعري ما كانت تحكمني وقلبي ما كان ينظر وعيناي ما كانت تفرح،

كنت أشعر بالخوف وقت بُعد روحها عني أينما كانت فأحاول ترقب موقعها وكلما خطر على ذهني ما كان جديدًا من مقرها يزداد قلقي... حينها تأكدت أنني لن أجد حلًا غير البعث بكلماتي إليها.

رسالتي كانت إعترافًا بما فعلت وما شعرت به تجاهها ولكن لم أذكر حبي لها أملًا في أن يأتي يوم أُخرج ما في قلبي فقط من كلمات لساني ورجاء في أن تقبل وتُقدر إعتذاري بهذا الاعتراف... لتمر الأيام ولحظات اليأس حتى جاء لي صديقٌ أعطاني الأمل والحل فلذلك أعتمدت عليه مطمئنًا _ ولم أشعر بالندم لفعل هذا حتى الآن _ وجعلني أفكر في إتخاذ خطوة خجلت من فعلها من قبل.

فهو قد أمتلك رحالةً وثق بها وبمرسالها وحينما عزمت على التقدم أبلغني فجأة بوجوب نسيان كل ما حلمت به وكأنه يأمرني، تعجبت وازداد إلحاحي ليخبرني بما خاف منه عليَّ وهو ما لم أكن أتوقعه من قبل... كلامٌ قاسٍ في أمره ومذلٌ في مضمونه، فسرد لي كل ما أرسلته مرغوبتي عن طريق هذه الرحالة:

أهذا إجبارٌ؟ فعافية أمره هي سلاحه! ذلك لن ولم يحكم القلب أبدًا، فأنا لم أعرف اسمه، لم أتطلع على ما بروحه، لم أميز حتى هيئته... فكيف لي بتقبل قلبه التائه؟ وكيف له بحبي وأنا لم أجد مشاعري تتجه نحو قلبه يومًا؟

سمعت هذه الرسالة القصيرة وأنا أشعر بالرعشة المُربكة، لم أرغب في التحدث أو حتى التعبير عما أذهلني ولكني كنت أتفاداه

وأُكمل البحث عن وسيلة توصلني لرؤيتي... لم يستطع عقلي تدبر تلك الكلمات ولم يستطع قلبي السيطرة على عيناي حتى دمعت، وما ظل يراودني هو شغفي لمعرفة شعورها تجاهي إذا رأت حالتي في ذلك الوقت فتلك الكلمات كقانون القاضي الحاسم وظلم الحاكم المدبر.

وبعد بضعة أيام قررت أن أرسل خواطري تفسيرًا لمشاعري فمنعني ذلك الصديق ـ بل الأخ ـ ونهرني، كلماته كانت كالدرس الحاسم لنظرية قد أتفق عليها الخلق من قبل وهي:

لا تقبل كلمة لمن ذل مقامك رغم إحترامك لمكانة قلبه وروحه قبل عقله فهذا خير ما يقوم به المرء مع من أحبه.

فأنا أستقبلت ما ترفضه قسوة ذابح الحمام الحر[1] وما سأقوله لك الآن تمنيت أن أبلغه بلساني وليس عن طريق عابرةٍ أو مرسالٍ:

ما كان يربطني بشدة لإيماني هو دعائي لحمايتك ودعائي لفرحتك ودعائي لنجاحك ودعائي لإعطائك الأمر لقلبك كي يسمعني... لم يمر يوم إلا ودعوت الله حتى يحتسبك مرافقًا لي طوال طريقي حتى موتي، لم يمر يوم إلا وتبسم وجهي عندما أراك في عيناي أثناء غيابك... كنت أتذكرك وقت ضعفي، كنت أتذكرك وقت قوتي، كنت أتذكرك وقت فرحي، كنت أتذكرك وقت حزني كي أعطي الأمل لروحي فتكمل طريقها وتصل إليكِ... ردك لم أعتبره مذلة أبدًا بل أعتبرته خوفًا جارحًا لم يعطي قلبه حق أمره أو حتى راحة نومه، لم أكن أضيع وقتي

في ظل تفكيري بك ولم أفكر للحظة أن حبي هو جزء من فشل رفاهيتي المهملة التي تبحث عن قلبٍ يساندها وقت ضيق حالي... ولكني أيضًا لم أتوقع أن تسرُّعي سيخيفك من قلبي وما ظننت أن لهفتي هي سر إنزعاج قرارك.

فأتمنى يا صديقي رؤيتها الآن أملًا في إثبات نقاء روحي ونية قلبي الواثقة من إقناع ذهنها الظالم ومحادثة قلبها الهارب.

نظرة للمسار

حضور الليل ألهم الفتى بالتحرك تجاه شرفة المنزل حتى يستطيع النظر لسرعة اختفاء النجوم بين السحب ليتأكد حينها بأنه لن يلحق برؤيتهم كما تتسرب منه أيامه، لحظات وأتكأ بيده اليمنى على السور بعدما أغلق عينيه وكأن كل ما رآه في الثانية الماضية يتكون مع بداية الخليقة ومازال حتى تلك اللحظة يشعر بتمتمة والدته توبيخًا لوقوفه بالخارج وتركه المدعويين لزيارتهم... وفجأة أحس بمن يمسك بكتفه ويداعبه بين رقبته لينظر خلفه فيجد عمه يحتضنه ويوجه رأسه لمتابعة أحفاد النجوم المبعثرة مرة أخرى.

- ستجد جزءًا من رفقاك يعتقدون أن أسوأ خطأ خادع للمرء بكل وضوح وقت سعيه للوصول نحو المبتغى هو التغاضي عن إنتقاء الخطوات المناسبة أثناء السير، لأن ذلك بالنسبة إليهم يعتبر شيئًا بديهيًا، فالنظرة للنجم حلم، وفضيلة تميز من أختارها ولمح بارقها وحارب كل أحزانه وقت إبتسامته لرؤية ما تمنى الغوص في لمعانه.

ليرد الفتى الصغير وكأنه أمتلك مثل خبرة عمه الواسعة:

- ولكن هناك جزءًا آخر من الناس معتقداتهم تختلف وتضطرب مع تلك الكلمات فهم مقتنعون بأن المرء كلما نظر بعيدًا تسارعت

خطواته بالحكمة وأتضح الاتجاه الأدق أمام عينيه التي أُجهدت من غبار المصائب وحصى النكبات.

نظر له العم والدهشة الخافتة تظهر عليه ولكنه كان يحاول أن يخفيها حتى لا يجادل الفتى ويخسر بالمنطق خاصةً بعد أن سمع هذه الجملة التي لم يتوقع أن يقولها أحد في مثل عُمر ابن أخيه، فرد بعد أن ألتقط أنفاسه:

- والجزء الثالث من البعض يرى في قرارة خبراته أن المرء يضطر السير فوق ما بُعثر تحت قدميه متحملًا ما يجرح كاحله دون الالتفات له، غافلًا بنظراته الغير موجهة كتجارب إختبأت بخلف حكمٍ لا يهم إذا أسقط عن وعيه حروفًا من عناوينها.

تبعه الفتى بكلماته مسرعًا ليُفرغ كل ما يشعر به حتى لا يفقد الفرصة التي منحها له عمه للحديث.

- والنوع الأخير مَن يعتبر أن المرء يبني أسلحته بما توفر بين يديه، فمن أقتنع بذلك آمَنَ بأن بقايا البذور التي بُعثرت أمامه ستظل واحدة منهم تحتفظ بروحها كي يعيد زراعة أرضه من خلالها... وبدونها لن يكمن الواقع الذي سيسير بين أحداثه.

ليتخلى العم عن أسلوب المناظرة الذي كان يسيطر عليه ثم قرر أن ينصح هذا الصغير راضيًا عن ما يقول.

فأردف مسرعًا:

- فما هو واقعيٌ ممزوج بطعم المجازفة ولكن مُبسط في معانيه لدرجة الإعتياد هو أن ينظر المرء لمَ أراد ثم يسير متحسبًا لخطواته، فنظرته الأولى هي نقطة البزوغ في خطته وتحركاته المحكمة التي فيما بعد ستصبح القلم الذي يخترق أدق السبل ليزين مخطوطته... وبدون تلك المراوغات لن يسمى ذلك الطريق بالحلم أو الهدف أو الرغبة أو التمني أو حتى بالطريق.

ليستنتج الطفل منبهرًا:

- ولكن جميع الأراء تدور حول نقطة محددة وهي أن الوقت يقيد زمن التفكير.

سكت العم للحظات ثم حاول أن يؤكد له نظرية التوجيه التي تعلمها.

- ومن هنا أتفق الكل على أن الإمساك بلجام طاقة تفكير الصغير شهادة مُلك لإستحواذ التاريخ فيما بعد، فكأن المسئول عن عقل الأصغر هو من سيحقق ما نجح في طموح ذهنه.

سرح الفتى لبضع ثوانٍ ليتساءل بعدها في حيرة:

- ماذا لو أن ما تملكني أبعدني عن ما أؤمن به؟ هل سأبكي إذا هرب مني من تعودت على الاعتراف بأسراري له؟ هل سأسرح في الوسائل التي أحافظ من خلالها على أغراضي وأنسى من كانت تنظر لي وأنا نائم والدعاء بين لسانها والسماء تبتهج لراحتي؟ هل ستُقطع

حبال الروح من شدة المسافة بيني وبين من حلمت ببراءة أن تتحمل سعادتي وشقائي لإرضائها؟

ومن هنا ثبت للعم صحة الجملة التي قالها الصغير خلال حديثهما:

- حقًا، كل تلك الأسئلة تدور حول نقطة محددة وهي أن الوقت يقيد زمن إكتشاف الذات.

لحظات ودخلت عليهما والدة الفتى لتتحدث وكأنها كانت تتناقش معهم منذ البداية، فقالت:

- تتغير نظرية البعض طوال سنين خبراتهم في العديد من الأمور ولكن تتباطأ أحيانًا تلك الأصوات التي تتصارع في أذهانهم ليؤمنوا بأن كلما زاد وعيهم عن أمرٍ ما وتحرك شغفهم للتفكير فيه زدادت فرصتهم في التحدي... فلا يعلم أحد قدرته على تحقيق ما تمنى في الفترة المحددة له بالرغم من معرفته بما يستطيع تقديمه، لأن العقبة ليست دائمًا ما تعرقل أما المفاجأة هي التي تستطيع أن تهدم ما بدأه المرء، فقط بتعجيزه عن التفكير.

ضحك الفتى ثم قال بكل ثقة:

- فهذا الاكتشاف أيضًا يدور حول نقطة محددة وهي أن الوقت يقيد زمن الشعور بذلك القلب الضعيف.

لينهي العم حديثهم بنتيجة لكل تلك الإثباتات التي قيلت كالاعترافات.

- الزمن يكمن في أوقات سير المرء لنجاحه حتى وإن كان يمزح وقت خوفه، الزمن هو ما يملكه مع من أحب وحده ليُعدل قسمته لمَ تعود على ضياعه من يده... لذلك تشير لنا الحياة كل يوم بأن الزمن هو حدود كل خطة.

فألتقط الصغير أنفاسه بعد أن مرت عليه هذه الجمل كنسيم الهواء الصافي وعمه ينظر له بإبتسامة إعجاب لمَ انبثق من خبراته المتجددة... لتتنهد الأم وتمسك بيد ابنها وتلقي بكلماتها في حماس:

- هيا أسرعوا فالكعكة الساخنة كادت أن تنتهي بسبب من ينقضون عليها من إخوانكم.

أرى كرمك

- أشعر بالرهبة لأني أحدثك بل أشعر أنك تسمعني حتى وأنا صامت... ولو وقف بجانبي كل من عاشرته وقت موتي ستظل أنت الأقرب إليَّ لأنك وحدك من أمتلكت قلبي، فلم أعد أعرف بماذا أشعر... أبالندم أم بالحسرة أم بالضعف أم بالصبر أم بثبات الأعصاب أم بالخوف الذي أعتاد على مصاحبتي، أنت تعرف كلماتي قبل أن تُلقي بها دموعي لأنك تُقدر مشاعري التي تفضحها نظراتي دائمًا... أبوح لك بكل شيء دون تكلف وأُظهر لك ضعفي دون خوف ولو ملكت من العمر قرونًا ما أظهرته لأحدٍ غيرك.

- تملكتني الرعشة في صغري حينما ذكرت اسمك، أما الآن ولفقدان الثقة بروحي لم أعد أمدحك... حاولت البحث عن حلٍ فلم أتوصل إلا لهذا الطلب وهو ألا تهجرني حين أدع الخبيث يسوقني وأن تُذكرني دائمًا بذكرك بقلبي قبل لساني... ارزقني بحُبك يا أعظم من شعرت بوجوده.

- امتلكت عدة شهوات ولكني فضلت أسوأها مؤمنًا بصواب قراري في تنفيذها، ولكن لحظة انتهائي أجبرني الندم على الاقتراب منك مرة أخرى... لم تخذلني كلما توسلت ولم تبخل عليَّ عندما

حمدت ولم ترفض دعاء أمي في أول نظرة وجهتها إليَّ وقت ولادتي... حرمتني كثيرًا من أمور حسبت أنها رزقٌ وعلمت فيما بعد أنها غمٌ لا يزول، لذلك تعجبت حين أستنتجت أنك كنت تعينني حتى قبل أن ألجأ إليك.

- أنتظر العقاب، أنتظر الدرس الجديد، أنتظر حقك عليَّ ويداهمني الأمان كلما ذكرت اسمك يا سلام... الشغف يجعلني أتريث وأنا مطمئن بعد دعاء روحي لك منتظرًا هِبةً أعلم أنني لن أُقدرها لضعف قدرتي على الوفاء بما وعدت نفسي به من أجلك... كنت أشكو ليلًا فأكرمتني نهارًا وأستغفرتك نهارًا فرزقتني ليلًا.

- كثرة الأفكار ومنطقها أكدت لإيماني الغائب أنه لا مفر ولا سبيل لكلماتي فبالرغم من إعترافي وبكائي النادم إلا أنني لم أشعر بالراحة... تعودت أن أُخفي عجزي كلما اقترفت ذنبًا، فأيقنت أنه لا أمل يصطحبه لا مبالاة.

- أستغفرك مما فعلت ومما سأفعل، أستعيذ بك من ذكرياتي يوم أشعر بلذة الذنب وقت حدوثه، أرني آياتك بين أيامي في دنيتك الفانية يا قدوس فيخشع كبرياء قلبي وإن طالت سنين تمر هباءً... سبحانك يا من أظهرت الضحكة بعد وحشة طالت بآلام، فرحتي حين أرى الحب في أعين من لا يعرفني تُزيل رعبًا أكد لي أنني منافق ولا أستحق تقدير من حولي.

- أعاهدك الآن أني كلما قررت أن أذُم، سأذكرك... كيف أنطق اسمك وأنا أستكمل ما عزمت على قتل إرادتي من أجله؟... ربي هب لي عطفك عليَّ وأنا غافل عسى أن أبكي وتغسل الدموع طريقي.

قطرات العرق سرقتها الدموع لينهمروا من وجه الشيخ تنبيها لما عليه فعله... فرفع يداه قائلًا في هدوء:

- اللهم عافنا في الدنيا والآخرة ولا تحرمنا فضلك يوم ترضى عنا.

ليرتفع صوت المصلين من خلفه وقت الفجر قائلين:

- آميييين.

وكأنهم من رددوا كل تلك الكلمات دون أن ينطق بها الشيخ، فما دار بقلبه دار بقلب العشرات من خلفه ليختصر هذه الجمل التي سرقت دمعته في هذا الدعاء القصير... فراحة النفس هي ما سيطرت على خشوعهم الحاضر وكل منهم يمسح بكفيه على وجهه علامة على الرضا الذي لا يناله العبد إلا حينما تحميه صُحْبة الله.

حكاية في محطة

غياب أشعة الشمس لشهور أعطاها الحق كي تشتد في ذلك اليوم الذي هربت فيه هناء من تلك الأوراق المجبرة على استيعاب كل ما فيها بقضاء بعض من الوقت فى وسائل المواصلات إما ذاهبة لأساتذتها أو عائدة لبيتها أو متجهة لأصدقائها للحصول على ما سيساعدها على جلب بعض من المعلومات الثمينة، ففي تلك اللحظات كانت بقدر الإمكان تتابع التصرفات اليومية الطبيعية لمن حولها كمحاولة منها للحفاظ على معرفتها بما يدور بين الناس... بعدما خرجت من سجنها أيقنت أنه لا زال أمامها وقت كافي للوصول فقررت أن تكون وسيلة إحضارها للمكان المرجو عن طريق المترو لمتعة التفكير التي تنتباها عند ركوبه، فهناك عادة أكتسبتها خلال هذه الفرص يصفها البعض بالتطفل المخزي ولكنها تعتبرها صدفة لتعلم ما سبقها البعض في معرفته.

العادة كانت الإنصات لا التصنت فهي تحب الاستماع لضحكات وحواديت الركاب خاصة لو كان الحديث على الملأ فشرارة بسيطة أشعلت تداول المواضيع بينهم بعدما سمح قاطع التذاكر بتجمع الرجال والنساء في العربة الأخيرة لتفادي تدافع الراكبين.

عامل العربة يجمع ثمن الأوراق مسرعًا حتى لا يهرب عن نظره أي من الحاضرين، ليصيح فجأة دون إنذار:

- إيه ده ! معييش فكة يا بيه.

أمتعض الرجل الجالس مع ابنته، ليقول مدافعًا عن نفسه:

- أعملك إيه طيب؟

- هو إيه اللي أعملك إيه، كل شوية حد يديني تمن التذكرة مجمد.

فوقف الأب غاضبًا:

- وأنا معييش فلوس غير دول.

تراجع العامل للخلف حتى لا يخيف الصغيرة:

- مش معقولة يعنى ده لسا فى إتنين ركاب قايلنلي نفس الكلام في آخر العربية مش إسطوانة هي.

ليتدخل أحد الركاب:

- خلاص يا جدعان صلواع النبي... ماكنتش فضة اللي تكهرب الدنيا كده.

لو تحدث البقية سينحازون لكافة الأب لذلك أبتعد العامل، ساخرًا:

- الله يحنن عليكوا بقى.

تلك كانت البداية لإثارة الشغف بالنسبة لهناء ولو أمتلكت الحل لتدخلت وأنهت هذه المناوشات كما يعد المسئولون الكبار دائمًا... فلم تُضع الوقت في التفكير المار وراحت تتابع البقية أملًا في مشاهدة المزيد من التشويق لحكاية ربما تساعدها في أمرٍ ما لاحقًا.

سمعت صوت الهاتف يعلو بجانبها فتوجهت برأسها نحو فتاة تأكدت من فارق السنوات الكبير بينهم... فردت الآنسة على المتصل وهي ترتعش:

- أيوه يا ماما، أنا مروحة... أعمل إيه يعني كنت لازم أستنى لحد ما يخلص وبعدين روحت أجيب الكتاب... ما ينفعش كده على فكرة، بابا أتصل وأنا هناك وعمال يشك فيا وقعد يسألني أنتِ فين وإتأخرتي ليه قولتله أنا في الدرس قالي وبترودى عليا إزاى وأنتِ في الدرس قولتله أنا بكلمك من بره ولازم أرجعلوا تاني عشان ما يطرودنيش... كان حيعملي مشكلة على فكرة ولو مش عايزين تصدقوا أنتم حرين أنا مش حقولكم حاجة زيادة.

شعرت الفتاة بصدق وصحة ما يقال فأرادت أن تتضامن معها وتخطف الهاتف من يدها لتتحدث لهذين الوالدين راغبة في مقابلتهم حتى يتاح لها الفرصة لتوبخهم على ندرة ثقتهم المفرطة في من أنجبوها، ولكن ميولها للمساعدة انقطعت عندما استمعت لجزء من النقاش السياسي الذي أعتادت عائلتها على أن تتشاور في حيثياته.

ثلاثة شبان كل منهم يدافع عن رأيٍ مخصص لقناعاته وحتي إن أتفقوا على الإيمان بفكرة وجيزة راحوا يناقشوا أبعادها... ليكمل الأول:

- الدنيا خربانة برضو... أنا عن نفسي مش شايف حاجة جديدة حتحصل.

ليوافقه الثاني:

- بصراحة أنا ما بحبش أخد رأيك، بس أنت عندك حق.

أما الثالث أعترض مقاطعًا:

- إزاي يعني الكلام ده... أكيد في حاجات أتغيرت بس إحنا مش واخدين بالنا.

ضحك الأول ممسكًا بيد صديقه:

- إيه يا ابني، أنت عايش في بلد تانية.

- ده على أساس إنك دلوقتي مابقتش تحس بشوية حماية... بلاش يا سيدي طول اليوم، على الأقل وأنت راجع بيتكم.

فيتدخل الصديق الثاني،مسرعًا:

- مش مقياس برضك... في حاجات كتيرة جدًا أهم وناقصة.

- لا والله، زي إيه يعني؟

- أديك شايف لا أحكام الإشارة ولا قوانين البيع والشرا حد بيعبرهم... عملك إيه بقى الأمن قصاد كل ده؟

ليتراجع الأول عن الهجوم حتى لا يشتد خلافهم وانحرف بحديثه:

- بس والله مهما عملت، المواقف هي اللي بتجبرك إنك تغلط.

تجاهل البقية جملته، فاقترب الثالث من النافذة، قائلًا:

- والله أنا شايف إن إحنا لسا في أول الطريق لازم نتعب وناخد على دماغتنا... مش صينية بتسخن هي.

سيطر الغضب على الثاني بسبب نبرة الاستنكار التي خرجت متعمدة من رفيقه:

- لا يا حبيبي، دي بلد بتولع... أنت يعني عشان أبوك عميد حتتنطط علينا؟

فتدخل الرجل العجوز الذي كان يتابع حماستهم مع هناء، وبكل ثقة وضع يده على كتف الشاب الثالث حتى يمتص غضبه قبل أن ينفعل:

- بس، بس، بس... أنتوا سايبين الدنيا كلها وجايين تتعاركوا هنا.

شعر الأول بحرج فأمسك هو الآخر بالثاني حتى يبعده... ليكمل العجوز ضاحكًا:

- قولولي بقى أنتم بتشتغلوا؟ ولا في كلية، ولا عندكم كام سنة؟

ثبتت حركة أيديهم وانخفض الصوت حتى شعرت هناء أن هذا

العجوز كان مدرسًا قبل أن تخرب الأيام صحته الواهنة، فألتفتت مرة أخرى حولها لتحدد من ستختاره من الجالسين للاستماع لما يقول... لتجد سيدة يقترب عمرها من سن الثلاثين وابنها يستند على فخذتها، تتحدث لامرأة في مثل عُمر العجوز وتجلس بجانبها.

أردفت الأم محاولة إلتقاط أنفاسها:

- وحضرتك واثقة من الست ديه؟

ارتفع صوت المرأة الكهلة حتى تثبت صحة ما تقول:

- آه طبعًا، ده أنا سنين عمري بتعامل معاها... حتى البلوزة العليا مخيطاها عندها.

- والله أنا تعبت من الهم اللي فوق دماغي... خايفة ألف وأدوخ تاني.

- ماتشيليش هم ده هو حتة بنطلون.

الطفل كان يحتمي من أعين الجميع بخجله، فسألته المرأة مبتسمة:

- في سنة كام يا قطة أنت؟

رفع الابن أربعة أصابع وهو عاجز عن الشرح لتوضح لها الأم:

- أهي دي المشكلة، عمالة أتشقلب في المدارس واحدة ورا التانية وبيتشرطوا علينا... حتى الحضانة الغالية محدش فيهم راضي ياخده علشان سِنه، بيقولولي أنا وأبوه دي قوانين الإدارة وقوانين البتنجان... شنكلة وخلاص.

فتعاطفت معها السيدة محاولة مساعدتها:

- طب ما فكرتيش توديه مدرسة حكومة، حتى لو السنة دي؟

- لفيت على كله، والله كله بيخيبني.

حتى قرر الوحي أن ينعم عليها بتلك الفكرة:

- طب إستنى أطلع البتاع اللي أنا مش عارفة أستعمله ده.

فضحكت الأم وقالت:

- هو إيه ده يا حجة؟

- الموبييل، أصل العيال لسا جايبنهولي جديد... بوصي، خدي النمرة ديه.

- بتاعت مين؟

فارتفع صوتها مرة أخرى لتُطمئن الجميع على مصادرها:

- نمرة ابني، ما هو بسم الله ما شاء الله عليه محامي ببكاللوس، بكاريوس، بكا...

قاطعتها الأم:

- بكالوريوس يا حجة... طب حيبقى ليها لازمة ولا حنضيع وقته ع الفاضي؟

- خلي جوزك يكلمه النهاردة بليل عشان مراته مجنونة وبتغير عليه... وبالمرة يكون فاضي ماوراهوش تليفونات.

لم ينتهى الحديث ولكن انتهى الطريق بالنسبة لهناء، فكان عليها أن تخرج من العربة لوصولها تاركة القصص والآراء والمشاهد التي تعودت على رؤيتها وشعرت بالأمان عند سماع أسرارها من فم أبطالها وكأنها كانت تشارك ولو بجزء في الأحداث... ذاهبة لمصير ظلت لسنوات تتبعه مؤمنة بنتائجه رغم وجوب حبسها بغرفتها من أجل إنهاء رحلة رسالة الماجيستير، ولتحقيق هذا الحلم أبتعدت عن كل ما أيقظ متعتها يومًا.

ادفع السبوبة

نسبة ثبات معدل الظفر بالناتج النهائي المراد خادعة وإن كانت تشبه عواقب الحظوظ، أيام من التخطيط وشهور من الصبر وسنوات من التحمل لا تضمن لصاحبها انحياز التوقعات نحو تحركاته... الزبائن عددهم يتزايد كل يوم وقد تعود على اختلاف أحجامهم وطبقاتهم، ولكن ذلك الرجل الذي دخل عليه بوجه عابس وصوت منخفض جعله يتخوف من سبب قدومه خاصة وأنه شاهده كثيرًا يتردد على أصحاب المحلات المجاورة لمقر رزقه المتواضع.

اقترب الرجل من مكينة التصوير ثم نظر لصاحبها، وقال:

- هو المحل ده متسجل باسم مين؟

أبعد الآخر يد الرجل عن بضاعته ورد بهدوء:

- أنا الواقف في المحل يبقى أكيد تبعي.

- آااه، أنت خالد بقى اللي اشترى الورق والأقلام والعدة من حمادة كبلات.

فرد خالد محاولًا تمالك أعصابه:

- أنت مين أصلًا؟

أحضر الرجل الكرسي المجاور لباب الدخول وجلس عليه، ليكمل مستهزأ:

- أنا مُحضر الضرايب، أستاذ طاهر الحلاق... إيه ما حاولتش تسأل عني قبل كده؟

سكت خالد للحظات وجلب هو الآخر الكرسي المواجه للمكينة:

- أؤمر.

ليخرج طاهر من حقيبته دفتر حسابات عملائه:

- الأمر للكبير وحده... يا ريت تطلع اللي يثبتلي إنك فعلًا صاحب المكان

الأمر طبيعي ولا داعي للخوف ولكن خالد لم يكن مطمئنًا خاصة وأنه لاحظه من قبل وهو يراقبه لأيام... ففتح درج مكتبه وأخرج كل الملفات القديمة وألقاها أمام ضيفه على الكرسي:

- الحاجة أهيه.

- حاسك خايف؟

- وأخاف ليه... أنا ماخالفتش القانون لامؤاخذة.

أمسك طاهر بورقة خضراء، وسأله:

- العقد ده أنت مضيته فين؟

حاول خالد أن يتهرب من الإجابة ولكنه فضّل أن يخبره حتى ينتهي من ذلك التحقيق سريعًا:

- ع القهوة، وكان معايا الأستاذ عبد الكريم... اللي بيشتغل في الشهر العقاري، الدور الأول ع اليمين أول مكتب.

- طبعاااا، عم عبد الكريم ده حبيبنا من زمان... بس برضو أنتوا إزاي تمضوا حاجة زي كده هناك؟

- والله الراجل ده معرفة قديمة والشارع كله أكدلي إن ديه طريقة شغله.

ضحك طاهر ونظر في عينا الآخر متربصًا:

- مممم... على فكرة عبد الكريم إتحول للتحقيق بسبب تصرف زي ده من أسبوعين.

كان خالد على علم بذلك، ففضّل أن يُظهر تأثير الاندهاش الخاطف على وجهه:

- يا حول الله... يا أخي ربنا يعينه ويعين عياله.

- بيقولك اتمسك وهو بياخد إكرامية.

- خلاص إحنا مالنا بقى... الورق اللي معاك سليم؟

ليقف الضيف فجأة:

- يا أستاذ ده شغل حكومة مافيهوش هزار مش إمضا على ورق وخلاص، في ختم وفي طوابع لازم يدفَع تمنهم والعقد يتحط في الأرشيف بعدها... وأنا بالنسبالي المحل ده مش متسجل قانوني.

- شوف يا باشا، أنا واحد ساكن هنا بقالي حداشر سنة... والناس كلها عارفاني وطول عمري ماشي بما يرضي الله.

- شغل الحكومة مافيهوش العواطف ديه.

فارتفع صوت خالد واندفع نحوه حتى يخيفه:

- ما أنتوا طول عمركم بتمشوا الدنيا كده.

- وأنت بالطريقة ديه مش عايزنا نمشي بما يرضي الله بقى.

أشتد الخلاف بينهم وتساؤل الشاب تحول لغضب ومُحصل الضرائب لا يكترث لعواقب ما يريد فعله، لا جدوى من الحديث وكل منهم مؤمن بمبدأه... حتى دخل عليهم أحد أصحاب المتاجر المجاورة:

- إيه يا جدعان ما توحدوا الله ع صبح.

فابتعد خالد عنهم ليلتقط أنفاسه ثم اقترب ثانية:

- لا إله إلا الله... ما أنت أكيد سامع يا عم يوسف.

- سامع بس الكلام يبقى براحة.

ألتفت يوسف لطاهر مبتسمًا:

- وأنت يا أستاذ نهارك فل مش كده... مالك حامي ع الراجل كده ليه؟

عاد طاهر لكرسيه وقال:

- هو اللي مجاش سأل عني في الأول.
- لأ في دي، أنت الغلطان يا خالد يا ابني.

فأمسك يوسف بيد جاره وسحبه ليقفا بالخارج:

- بقولك إيه، عشان ماتبقاش متعاري بالسبوبة اللي حيتلك... صحاب المحلات اللي في الشارع ده والشارع اللي ورانا بيدفعوله مبلغ حنين كل شهر.

ليرد خالد غاضبًا:

- وده ليه يعني؟... هو أكل حمير وافترا.
- أه، ما دام أنت جديد في المهنة يبقى لازم ترميهومله عشان يمشيلك الدنيا زي زمايلك.
- وهو مقالش كده ليه من الأول؟

ضحك صديقه في سخرية واضحة:

- الراجل عنده كرامة يا سيدي ومابيقولش.
- على آخر الزمن بقينا ندفع زي القفيان، وده يترماله كام؟
- يعني متين... أو يمكن عشان أول مرة ليك تبقى متين وخمسين.

فأمسك خالد بجلباب هذا الناصح وصرخ دون إبداء الاعتبار لمن هو بالداخل:

- يا أخي متين وخمسين مسمار قعد عليهم في ساعة واحدة، هو إيه ال...

ليضع يوسف يده على فم المعترض متعاطفًا معه ومقدرًا لصعوبة هذا الشرط المفروض على وسيلة عيشه:

- ماتضيعش وقت وإدفعهم وأنت ساكت... كان زمان بقيت حبايبك اتصرفوا من سنين.

نظرات السارق المنتظر كانت تتابعهم، فأمام الكل حقه الزائف يجب أن يُقدم له دون رفض أو حتى شكوى... عاد الباكي للداخل وأخذ الملفات ليعيدها للمكتب وأخرج ما قد جمعه لأيام منذ بدء عهده ولكن عندما قام بإحصاء المبلغ اكتشف أنه لن يكفي ولذلك وضع يده في جوربه، فأحس في تلك اللحظة أنه انحنى مستغنيًا عن هيبته ومتنازلًا عن عطية ما عليه أن يمنحه لأهل بيته في المساء... ليُطل ثانيةً عليهم بالخارج غير قادرٍ على تحمل تدلي كبريائه لوجدان خيبته حاملًا في يده وليمة أبناءه.

طالعلي واحد

عيون الشابين لم تفارق تلك السيدة التي تقف مع ابنتها فوق الرصيف حينما لمحا انخفاض حاجبي الأم خوفًا من سرعة الشاحنات التي لن تهدأ تحركات إطاراتها بعدما تم تعطيل إشارة المرور فور هجر العسكري الفقير لها ذاهبًا إلى بيته... أتخذت الفتاة الخطوة الأولى حتى تبث الثقة في نفس والدتها لتتقدم معها حتى يستطيعا عبور الطريق المليء بالطينة المبللة كآثار لمياه الشتاء التي اجتاحت المدينة، أما الشابان فلم يعتادا على تجهيز نفسيهما للعبور لأنهما ببساطة شديدة يجتازون هذه المأمورية بكل سهولة غير مبالين لصافرات السيارات وكلمات المارة المستهجنة لما يفعلانه من مجازفة تافهة.

مرت ثلاث دقائق حتى اقترب القصير منهما للسيدة التي حاولت أن تبتعد هي وحبيبتها عنه قليلًا، فأحس أنه موضع شك لمن يتابع هذا الموقف... ليتنهد وهو يضحك قائلًا:

- ما هو يا نروح كلنا سوى الناحية التانية، يا نستنى العسكري ييجي من بيتهم بكره الصبح.

ضحكت الفتاة وكأنها تؤيده فيما يقول وأمسكت بيد أمها متجهة نحوه، فتحركوا سويًا ليرفع الشاب الآخر يديه محاولًا إقناع أصحاب السيارات أن هذا الطريق ملك القدمين قبل أن تقتحمه الإطارات الفرنسية في زمن الملك توفيق باشا عام ١٨٩٠... أتموا المهمة على أكمل وجه، لتتسارع خطوات السيدة وابنتها كمحاولة منهما للإفلات من استقبال المطر الذي أوشك على مفاجئتهم مرة أخرى بعد أن شعرا بملامسة نقاط الشتاء الأولى لرأسيهما... فنوة السبعينيات لم يكن في إمكان المنجم أن يتنبىء بها لذا لم يكن هناك من يحذر المبللين.

وقبل أن يبتعدا عن مرمرة الشابين ألتفتت الجميلة مبتسمة لمن جاء يتحدث إليهما معبرة عن شكرها لجراءته على اتخاذ ذلك القرار... وبينما هو شارد في نظراتها فاجئه صديقه قائلًا:

- بقولك إيه... طالعلي واحد كده.

تملكت نظرات التعجب وجه الأول ليرد ساخرًا:

- إيه يا ابني اللي بتقوله ده، مش فاهم.

فيكمل الأخير متأوهًا:

- مش صعبة عليك تُلقطها ديه... يعني مالأخر كدة اللي حتعوزه حتنوله ع القد.

- آاااااه، وصلة الهم بدأت... ماشيها بالأونطة وربك بيسهل، وكفاية بقى السيرة ديه.

ليردف زميله مسرعًا:

- مش دايما بتنفع... عندك أهو، اللي شغال مهندس كان نفسه يبقى رسام والمحامي كان نفسه يبقى دكتور والمحاسب كان نفسه يبقى سياسي وبتاع بيطري كان نفسه يبقى ممثل.

- يا سلام، يا سلام، يا سلام... كفاية إن هما بيسترزقوا.

- يا زناخة عقلك يا جدع، طب ما في ناس شغالين على باب الله طول اليوووووم.

فحاول الأول تفادي إحدى الصخور الملقاة، ليقول مستنتجًا:

- والله دي حاجة حلوة، مش أحسن ما يفضلوا قاعدين ع المكتب لحد ما قماشتهم تندي.

- وليه القرف وسنينه السودة... ده أنا أبويا كان مأمن على شغلانته من قبل ما ينهي علامه.

- يا عم أنت أبوك كان بيصيف بميوه وشبكة، دلوقتي الناس جيوبها شبعت هوا بعد ما غلوا اللؤمة... ولسا كماااان، السعر حيضرب في اتنين وتلاتة بعد كده.

سكتا لبضع ثوانٍ حتى أكمل الأول وهو يضحك:

- أمي خايفة لأخش الجيش.

- طب والله فلوسهم حلوة... الولا ابن خالتي كان صوته حلو وبيجي منه، بس هو طنش واختار القرشين العلى بدلة البهوات.

- أهم حينفعوه... بدل الشقا اللي إحنا فيه.

حتى وصلا لبيت الأخير المُنهك، فقال مستهزءًا:

- غور على بيتكم بئة... دة أنت خلقتك في وشي طول النهار كفاية عليك كده.

سائقا عربات النقل لإحدى المصانع، مهنة شريفة لجآ إليها منتظرين قبولهم في مقاعد الوظائف الحكومية بعدما أبلغوهما بضرورة الانتظار كي يتم توزيعهم جغرافيا على أنحاء المحافظة بحسب احتياج كل هيئة... قبلا دون اعتراض وكل منهما هيأ نفسه لمواكبة ما قد يضطره للابتعاد عن أحبابه فتمر مع تلك اللحظات البطيئة الأحلام والمخاوف والأمنيات الغدارة... ولم يفلت عمرهما من الهجر، ابتعدا الصديقان دون أدنى مقاومة فقد أصدرت عليهما أعوام السعي حكمها بتكملة أوامر الظروف المحيطة الغافلة عن ما تسطيع الموهبة فعله.

نظرات الفتيات ومقابلات السيدات وضحكات الأبناء وزغاريط الأمهات ودوام الصداقات والعيون الباكية والألسنة الشاكية والألفاظ الملعونة والقلوب الناعمة والأيادي الضاربة يتحكم فيها القدر المحسوم ليهرب ومعه سنوات وسنوات من عمر الصديقان، فقد خسرا صلابة قوتيهما الجسدية وقدرتيهما على الرؤية الصائبة وأستغل أحفادهما هذه الفرصة ليهزموهما في كل الألعاب المسلية التي كانت دائمًا أفضل ما يهرب إليه العجوزان عندما تريد زوجتاهما أن تفرضا

عليهما الواجب المقدس للتعاسة الزوجية الروحية... فأثناء العاصفة السنوية للشتاء كان الأول يحاول أن يتخطى الأجسام المنحنية الواقفة أمام موظف المعاشات الشاب الذي بكت عيناه خشية بعدما أحس أنه سيصبح مثل هؤلاء المجاهدين لطُرقات الموت، ليلمح الأخير صديق طفولتهما الشيقة فاقترب منه قبل أن يفر من نظراته لأفعاله المعتادة.

- يااااه... لسا برضو بتعد الفلوس ورقة، ورقة.

فألتفت الأول وكأنه انتظر مثل تلك المفاجأة خاصة بعد عزلته مع صور عائلته التي لم يعد يتبقى منها غير متعلقات أبنائه، ليحتضنه باكيًا:

- ما أنا قولتلك زمان حرص على اللي في إيديك، لدراعك يغشك.

ليمسك صديقه بالأوراق النقدية:

- كام دول؟

- والله خاصمين مني خمسة في المية ضرايب.

- ما تحمد ربنا ده أنا خاصمين مني عشرة.

فقال الباكي ساخرًا:

- مش مهم بئة، يعني هو القفا اتغفل كام مرة في العمر... تعالى نقعد ساعتين ع القهوة قبل ما أنام منك.

- إستنى بسسسسس، حفرجك على حاجة.

- إيه، ست شاقرة... كفاية بصع النسوان يا ابن ال...

قاطعه الأخير في جدية تامة:

- شايف الناس الواقفين قدامك دول؟
- مالهم يا أخويا؟
- تفتكر راضيين على حالهم ولا كل واحد فيهم ملحقش يختار سكته؟

صمت الأول للحظات ثم أعاد النظر لصديقه، وقال:

- يخربيييييتك... هو لسا الهم طايلك لحد دلوقتي؟
- أنا واحد رجلي والقبر، من حقي أستفسر بئةع الأنا عايزه.
- حتفضل كده طول عمرك لا نافع في كورة ولا نافع في ثقافة ولا نافع في حريم ولا نافع حتى في طاولة... يلا نمشي من هنا جاتك هباب.

كالعادة تهرب الصديق من الإجابة رغم علمه بقدرته على البوح بما رآه يُختلس من بين يديه طوال عمره، وأيضًا رغم معرفته بتوقعات الأخير لإجاباته التي لا تختلف كثيرًا عن ما قد سلبه منهما الدهر وقت الحفاظ على الروتين المُشكل والصامد لأيامهم المعدودة.

مالكش مكان

أحيانًا ينهش المرض الوقت والمحاولات الجاهدة لمساعدة المريض الغالي ولكن إرادة الابن الأكبر حمدي لم تُستنفذ بعد فهو يملك القدرة على الاحتواء بسبب تلك الإمكانيات النفاذة التي أكتسبها من خبراته السابقة في المصائب، وفي ظل بصيص الأمل المعروض هو لم يعِ لأهمية الأمر ولا يهتم إن حدثه أخيه الذي بدأ يتأكد من حالة اللامبالاة المتعمدة التي يتبعها من سبقه في الولادة.

الشكوك أصابت حسن الصغير عندما لاحظ تدهور حالة الأم فشعر بالتقصير من جهته وأصر على أن يُكمل التحرك نحو جلب المزيد من الحبوب العلاجية والأطعمة ووسائل الراحة ولكن لا جديد، ومن هنا استنتج أن التقصير ينتج من سوء المتابعة والمسئول الأول عن الرعاية هو ملك الإحتواء في البيت منذ وفاة الوالد.

- يا حمدي، يا حبيبي أمك حتموت مننا... جبتلك صاحبي عشان يرمي عين ويشوف صحتها إيه، قعدت تتنطط عليه لحد ما طفشته وهو ماكنش حياخد مننا ولا مليم.

ألتفت الكبير له وهو يأكل:

- وأنا عملت إيه غلط يعني؟... هو اللي مقبلش شروطي.
- أقرع ونوزهي.

الغضب كان له النصيب الأكبر في رد فعل حمدي، ليرد صارخًا:

- طب إيه رأيك بقى إن أنا اللي حتصرف بعد كده، وأنت مالكش إيد في الموضوع ده.

ضحك الفتى مستهزأ بتلك الكلمات، ثم قال:

- مش فارقة... يا أخي بوجودك بعدمه برضو قارفنا، وخالك الفاصل بينا دلوقتي.

فالفرص الذهبية يجب أن تُستغل وإلا سيكون الندم هو المصاحب الأدق لحلقات التأنيب، ولذلك قرر حسن خوض منحة الدكتوراة المُرسلة إليه من قِبل إحدى الجامعات الكبرى في أمريكا الشمالية وبالرغم من خوفه الدائم مما سينتج عن غيابه إلا أن القرار لا رجعة فيه... ليسافر ملتمسًا ربه أن يُنقي خطواته بالتوفيق الذي صادفه فور وصوله، فالإقامة كانت ممتازة واهتمام المسئولين عن بعثته لم يختلف كثيرًا عن اهتمام والدته المريضة الباكية المتألمة به قبل أن ينطق اسمها.

لحظات المذاكرة كسنوات السجن ولكن حينها يستطيع الشاب أن يحدد أفضل الطرق التي سيسير من خلالها لتجنب المفاجآت المنحدرة، ومن خلال الخطط التي وضعها الصغير لعلاج أمه دون التعرض لأي ضرر يسلب منه الفرصة للتقدم قرر أن يعود فور انتهاءه

ولكن استقبال أخيه المعرقل كان أول الأضرار التي سلبت شوقه لتحقيق مراده.

- اتفضل يا كبيرنا... مش أنت يا بيه قولتلي قبل ما تسافر خالك الفاصل بينا.

ليجلس الخال على الكرسي الخشبي الكبير، فطالما قرأ عليه الأب الراحل أفضل الروايات... لم يشعر حسن حينها بالرهبة، ليرد في ثبات:

- حد قالك إن عندي اعتراض؟

انتفض الخال قبل أن يشتد الحديث:

- خلاااااص، أظن أنتوا عارفين طريقتي... نتناقش بالعقل مش باللسان.

أردف حمدي:

- هو اللي مش راضى يحترمني ولا عاملي أي اعتبار.

نظر حسن في تربص لعيني أخيه:

- أنا لا قولت إن أنا بحترمك ولا قولت إني مش عاملك اعتبار... ومن فضلك خليك في حالك.

- وهو أنا بحكي معاك من فراغ، حتفضل عيل بفنلة... مش عاجبك يبقى مالكش مكان هنا.

- بكيفك أصله، أنت مجنون ولا إيه؟

فأنتفض الخال مرة أخرى، صارخًا في غضب:

- بااسسسسس في إيه... والله لو ما اتخرستوا لأديك بالجزمة أنت وهو.

سكت الجميع ولكن آهات الأم كانت تزداد مع ارتفاع صياحهم، وقد بدا الخال عادلًا في تصرفاته فأحس حسن حينها بأنه سينحاز إليه كمساعد لتنفيذ ما عزم على إتمامه... ليرد حمدي في تكبر مصطنع:

- ماشي، بما إني الكبير حتفق معاه على حاجة... وأنا بصراحة شايف إنها الصح.

فقال الصغير مسرعًا:

- والله على حسب أشوف إذا كانت تنفع ولا لأ.

تغاضى حمدي عن ما قيل، ثم أكمل:

- المهم، أنت يا حسن يا أخويا بتقبض ما شاء الله مبلغ محترم... يبقى تديني نصه.

- نعععععم!!

ليشاور له الخال حتى يجلس:

- استنى سيبه يكمل.

تنهد حمدي في هدوء:

- تديني نصه عشان أصرف بيه على أمك وعشان أعرف أكمل عيشة هنا وأقدر أساعد وأنت مش موجود.

فوقف حسن معاندًا:

- والله لو طلعت فوق نخلة وعديت بلحها ما أنا عامل كده.

ليقاطعه الخال مناديًا:

- حسن.

ثم سكت للحظات وأكمل:

- هو ده آخر قرارك.

ابتسم الصغير في ثقة، وقال:

- دي مكابرة مش وجهة نظر حتى، أنا مش فاهم هو ليه بيعمل كده.

أسرع حمدي بأسلوبه الخبيث:

- أوعى تكون فاكر إني بحقد.

- أنا مش شايفه غير كده.

- لأ عيب تقول على أخوك الكلام ده... قبل أي حاجة أنت لازم تعرف إن أمك مش حتموت، عشان خيرها دايم.

- وده إيه علاقته بإهمالك؟

أردف مستهزءًا:

- علاقته إنك غبي ومش فاهم برضو... أنا الوحيد اللي حيعرف يحمي أمك، وأنا الأولى إني أبلع عسلها ومش حبالغ لو قولتك لوحدي.

يحاول حسن التحدث فيقاطعه حمدي مستكملًا:

- لو عايز تحميها، لازم تحمي نفسك الأول.

ليقول الصغير وهو يصرخ:

- فهمني، أعمل إيييه؟

اقترب منه الخال هامسًا:

- زي ما هو قالك في الأول أنت مالكش مكان هنا... امشي عشان ينولك من القلب جانب لما تفكر ترجع لأخوك تاني.

فتغيرت ملامح حسن الحماسية فجأة وهربت الدموع من عيناه:

- أنا مش حرجع لأخويا على فكرة، أنا حرجع عشان أمي... دي مش عارفة تتكلم ولا حتى عارفة تشاور.

اقترب منه حمدي هو الآخر:

- شوف يا أخي، حتى وهي كده... مغرقانا بجمايلها.

لينهي الخال الحديث في حزم:

- حسن، ركز معايا عشان أنا مابحبش أعيد الكلام تاني... كل واحد فينا لازم يبقى عارف حجم دوره يا ابني، أنا مضايق منك بصراحة لإنك مافكرتش بالطريقة ديه... من الآخر كده لو عايز تقعد معاها يبقى تنفذ اللي سمعته، إنما بقى لو شايف إنك مظلوم.

ثم جلس على الكرسي وأشعل سيجارة والدهم العتيقة:

- اتفضل امشي... للأسف، أنا معنديش حل يرضيكم أنتم الاتنين فغصب عني لازم أفضّل أخوك عليك... ماتنساش هو الكبير.

بكى المقهور حينما انتزع منه الفاصل الحق في استنفاذ ما خصه لرحيق زهرته... فصدق شقيق والدته عندما سمعه من قبل يتغنى بهذه الجملة:

- وإن كان العدل في السماء... فأرضنا تسرقها العيون.

ولكنه زور شهادته كي تختار يداه هذا المستغل بعد إقناع ضميره بصلاحية عبث الخلسة... فالعيون هي ما تتحكم فيما يحدث للأم وذلك ما قد فعله الرائد صاحب الأوامر المطاعة، فإن تغير رد الفعل سيكون مصير المواجه كمصير الرحال الذي كافح بعمره من أجل سيدة لم يبخل عليها الزمن بمحنه الباقية... فجزيل الشكر لكل من أراد أن يهب ثماره لوطنٍ تَبَرَّى حكامه من نسبهم إليه.

مذاق الفشل

تحدث مع ذاته حتى يفهمها، هدفه الأول هو أن يتحكم فيها ولا يجعل فتن الطموح تحركه نحو عجزه... بين الليل وساعاته صادف طارق بلوغه لعمر الستين فأدرك أن إلتزامه بمواعيد وظيفته قد انتهى رسميًا لتُتاح له الفرصة التي انتظرها طويلًا... السكوت والاستنشاق والتهيئة النفسية هم القواعد الثابتة لشروطه حتى يسمح لمن يريد أن يتذوق أشهى الأطباق الغذائية من مجهوده الخاص.

والد طارق كان يتلذذ باستطعام ما كان يُقدم له من الأقارب والحكم بفمه على محلات الطعام البيتي وإعطاء الأوامر لأصدقائه بعدما اختاروا أن يتولوا تجهيز وجبة العشاء أثناء اجتماعهم... أما من عانت مع أبيه كثيرًا كانت والدته التي طالما ترجت ولدها أن يُقيم مدى نجاح عملها المميز ولذلك كان يتابع تحركات أمه حينما تبدأ في مهمتها بداخل المطبخ الصغير، كميات محددة من الخضروات والتوابل يجب أن تحيط بالعامل الغذائي الأهم بين أساسيات كل وجبة وهو البروتين.

- مافيش لحمة يبقى اللي بحوطه في بوقي ده تصبيرة.

لتنفعل الأم فجأة أثناء متابعة طارق:

- أنا تعبت بقى... يعني واقفة على رجلي من الصبح عشان في الآخر تقولي كده.

تجاهل الوالد اعتراضها:

- ماليش دعوة بالكلام ده، اتصرفي.

لم يكن ذلك سببًا مقنعًا لإحداث ضجة في العلاقة بينهما ولكنه كان سببًا مقنعًا لتقوية العلاقة بين طارق ومطبخهم الصغير، أذكى الأفكار وأعرق اللمسات كانت تنتابه كلما دخل ذلك المكان... في صغره وفي شبابه وحتى عندما بدأ ظهره ينحني لم يستغنى عن تلك العادة، الانعزال عن زوجته وأولاده لخلق المذاق الخلاب.

وقفت ابنته فجأة، وقالت في غضب:

- إيه؟ عربية بطاطس... بابا أنت مجنون؟

- احترمي نفسك يا بت، مالك.

خفض صوتها، وأكملت ضاحكة:

- والله أنا مش فاهمة اللي أنت بتقوله برضو.

سكت طارق قليلًا، ثم ألتفت إليها:

- أنا حجرب وخلاص... ما دام الموهبة موجودة، يبقى إيه المشكلة حضرتك؟

- موهبة مين يا بابا، أنت فاكر نفسك طبال في سبوع... عيب كده.

- حتساعديني ولا لأ؟

قاطعته:

- لأ، مش حساعدك.

أحس أنه كالطفل، لا يحق له أن يعرف ما سبب رفض عائلته لرغبته... وبالطبع لم يفكر في إبلاغ زوجته أو ابنه، فعزيزته الصغيرة لم توافق على تنفيذ فكرته فكيف لهم أن يقبلوا ذلك... ومن هنا قرر أن يحقق ما شغل إرادته منذ خلافات والديه ليتخفى من أعين الجميع.

- أستاذ طارق، القرض اللي أنت عايز تسحبه مش قليل.

- يا جدعععع، ماتخافش... أنا عارف اللي فيها.

موظف خدمة العملاء بالبنك المعتاد للعائلة لم يقبل هذا الطلب المتهور والغير مدروس، فأكمل معترضًا:

- أنا مش موافق بصراحة.

طرق طارق المكتب بأصابعه:

- هو بمزاجك... خلصني يا ابني، عايز أمشي.

فتركه الموظف للحظات مستشيرًا مديره لمنع إحداث أي حرج في مثل هذا الظرف، ثم عاد إليه مرة أخرى:

- حضرتك أنا مضطر أبلغك بالموقف... مراتك جات هنا من أسبوعين وسحبت مبلغ كبير، فعشان كدة أنا معترض خصوصًا إني استنتجت من كلامك إنك ماتعرفش حاجة عن الموضوع ده.

تركه الأب مصدومًا وعاد لبيته حتى يحقق في هذه الحادثة بعد أن كتمت سيدة المنزل الأدلة التي كانت من الممكن أن تنبهه لذلك التصرف... انتظرها أمام التلفاز وأشار لها أن تأتي بعد إنهاء محادثتها لصديقتها، دقائق واقتربت منه فأمسك بيدها وجعلها تجلس أمامه ليضمن انتباه ذهنها لأسئلته.

أفصح عن الملف الذي يثبت ما أبلغه به الموظف:

- أنتِ ليه سحبتي المبلغ ده كله من البنك؟

أرتبكت وأبعدت وجهها عن عينيه ولكنه ظل متربصًا، فردت متوترة:

- مين اللي قالك؟

لم يجاوبها، لتُكمل:

- مروة ابنها حيتجوز، وهي مزنوقة في قرشين.

- والقرشين اللي أنتِ إديتيهم لأختك دول... إحنا حنسددهم منين؟

- أنا حتصرف وح...

سبقها ساخرًا:

- حتدوري على شغل صح؟!... وبعدين أنا طلعت ع المعاش خلاص.

راحت تبكي وهي تحاول الهروب من عتابه:

- كان لازم أتصرف، أنت عارف إنها مالهاش حد غيري.

تابع الأبناء حديثهما وقتما كان هو يتابع تسرب راحبته الساذجة فلهذا السبب الفظ قد مُنع عن مواصلة مشواره، بالنسبة إليه الدافع محصوب ولا يستحق أن ينتظر من أجله سنوات أخرى كي يحقق ما أجله منذ صغره... ربما تأخر في اتخاذ القرار ولكن القدر لا يكُف عن إعطاء الدروس لأصحاب الآراء الظالمة، وطارق كان أهم صديق لهذه الفئة بل كان أيضا من أصحاب القرارات الجائرة.

- لا حتعرفي تشيلي، ولا حتقدري تستحملي... يبقى بلاش أحسن قبل ما تسرح المركب منكم.

بلا نقاش أو حتى تمهل سمعي رفض عريس ابنته بعدما فشل في إتمام الخطوة الأولى لمشروعه الصغير، ترجته الشابة حتى يمنحه مزيدًا من الوقت ليثبت مدى قدرته على استيفاء ما هو ليس متوقع ولكن سيدها رفض المجازفة بمستقبلها كحُجةٍ أرغمته على أن يدعم انفصالهما ساخرًا من تلك التعهدات المستعارة.

آمن من قبل بعدم معقولية التستر على الفشل بدافع الظروف أما الآن فلن يجد المفر السحري الذي سيستطيع من خلاله إثبات مبدأه والحفاظ على ما ظل لليالي يراوغ عقبات مشواره لإتمام وصوله... الأيام أرغمته على اليقين بظلم الحياة لمن هو ذات الأفق العظيم والذي تعسر في إظهار قابليته لإجراء ما يُذهل كل من قهر عزته لما يتميز به، فإغراءات الأمل تدفع وبراهين الأبدية تقتل.

عشم العِشرة

صوت نبضات حذائها على سلالم البيت أفاقت حارس العمارة من غفوته المسائية بالرغم من تكرار هذا المشهد أمامه يوميًا ولكن في الصباح... ليلتفت لزوجته وهو في غاية الاستياء:

- شوف الست نازلة لوحدها في الوقت دة إزاي، مش مكفيها الطفح اللي بتخليني أشتريهولها كل يوم.

فضحكت قرينته وألقت بنفسها على السرير:

- يعني اسم الله بتدفع من جيبك... وبعدين أنت بتسبني أتنطط في الشارع بليل عشان أشتري العيش، مافتحتش بقك ليه؟

أعاد رأسه مرة آخرى لوسادته:

- وأنتِ يعني مين اللي حيعاكسك، ده بوزك شبرين ومتر يا...

لتقاطعه صارخة:

- عدي ليلتك على خير بدل ما أقول لأختك على فضيحة المنور... ماشي، يا أبو حنان.

استمعت السيدة المسرعة لذلك الحديث فأرادت أن تقبل يد الزوجة ورأسها وتهب لها إحدى فساتينها المبهجة حتى تكافئها على إسكات

هذا الحارس الرجعي... لحظات وجهزت نفسها للانطلاق بسياراتها الماثلة أمام العمارة فتحركت بأقصى سرعة تجاه الشارع العمومي للحي الذي تسكن فيه ومن هنا أحست أنها المتسابقة رقم ألف وخمسمائة في سباق الحياة، فالسيارات تتنافس على التقدم أولًا وكأن الجوائز المقدمة ستكون عملات الفضة النادرة للبطل أحمد برادة.

الزمارات المنبثقة من سيارات زملائها النساء اللاتي أصطحبن أبناءهن معهن كانت تشعرها بالتوتر أثناء عملية مرورها وأيضًا كلمات سائقي الأجرة العنيفة والبذيئة اخترقت أذنيها ولكنها رحيمة بطبعها فعذرتهم، هذه المصطلحات السيئة هي حقًا ما يستطيعون التعبير من خلالها عن ما يبذلونه من جهد طوال الليل دون المقابل المنتظر... حسن نيتها وانضباطها أجبر الجميع على اعتبارها مذنبة لأنها تسير بقوانين المرور الحكيمة دون تقصير فيما تعلمته، فبعدما تطرفت للناحية اليمنى حتى تسمح لرجل عجوز أن ينحدر بسيارته _ الفخمة، نوعية مرسيدس بينز ٢٠١٧ والتي يتضح من نافذتها أنه السائق الفقير وليس المالك المُنعم _ للطريق الآخر دون الارتطام بعمود الكهرباء العمومي عاقبها من كانوا يسرعوا بسياراتهم بجانبها غاضبين من ذلك التصرف.

فانفجرت العديد من الأفواه الساخرة خاصة بعد وجوب انتظار أصحابها لمدة ثلاثين ثانية أمام الإشارة الحمراء، ليضحك سائق التاكسي متمتمًا:

- أنتِ إيه اللي جابك هنا دلوقتي؟، يخربيت سنينك.

وصاحب الدراجة النارية لا بد أن يلتزم مع البقية فاستكمل:

- كان لازم يعني تحدفي علينا، مش كفاية راكبة ملاكي.

لم يكن وحده، صديقه كان يجلس خلفه فقرر الأخير ألا يسكت عندما لاحظ عدم اهتمامها بما يقال:

- يلا يا حاجة، يلا يا حاجة... إحنا مواعدين ناس.

الثانية الثلاثون اقتربت من الوصول، وهذا ما أجبر سائق الميكروباص على التدخل برأيه:

- يخربيت أبو اللي علمك السواقة يا شيخة.

السيدة تحملت الكثير وعزة النفس هي ما تحميها دائمًا مما يواجهها لذلك قررت أن ترد على هذه الجملة المحددة، فأخرجت رأسها من نافذة السيارة وقالت بكل ثقةٍ مكبوتة:

- آاااه... ما أبوك هو اللي معلمني.

ضحكات الركاب الحاضرين فاجئت السائق وجعلت الدماء تجري في عروقه محاولة الهرب، ففتح باب سيارته متجهًا نحوها ليجعلها تتأمل في قوة بنيته الجسدية حتى يجبرها على الاعتذار خوفًا مما سيفعله بها:

- يا بنت السو... ده أنا مراتي عمرها ما قالتلي كده، والله لأوريكي.

انتهت الثلاثون ثانية فاستغلت السيدة هذه الفرصة وانطلقت هاربة ليتحول الطريق لساحة سباق حقيقية، فعاد سائق الميكروباص لكرسيه حتى يستطيع اللحاق بها كي يمنعها من الإفلات بجريمتها في حقه فابتعدت بقدر الإمكان مستغلة سرعة عربتها كلما اقترب منها مستخدمًا مهاراته المكتسبة من أيامه العدة في تلك المهنة أما هي فاستخدمت ذكائها وقدراتها التي منحها أخوها إياها في بداية تعلمها والتكتيك الفني الناجح من الأفلام الأجنبية الدراماتيكية... حتى لمحت سيارة النجدة المتمركزة عند بائع الخضروات فتحركت نحوه ليلاحظ السائق هذا التصرف معلنًا عن استسلامه المفاجيء ومبتعدًا بنظراته الدالة على تربصه بتكرار محاولته للإمساك بها والأخذ بثأره لاحقًا.

وبعد انتهاء تلك المعركة انصب تركيزها على الوصول لصديقتها التي تواصلت معها عن طريق مكالمة ليلية قبل أن تحدث كل هذه الضجة:

- آلو، نيڤين تعالي بسرعة.

كانت نيڤين مستلقية على الأريكة ولكنها شعرت بسماع نبضات قلب صديقتها المرعوبة فاعتدلت في جلستها حتى تتأهب لما ستعرفه:

- في مصيبة ولا إيه؟
- تعالى بس وهاتي معاكي فلوس إحتياطي... بسرعة.
- إنتي فين طيب، ومين معاكي؟

صوت الصديقة ازداد توترًا:

- أنا معايا سلمى، إحنا في كافيه "Fabiano" أرجوكي ماتتأخريش.

كانت التوقعات توجهها، فظنت أن صديقتها سلمى المسكينة فقدت الوعي بسبب مرضها المبكر بارتفاع ضغط الدم وسيتطلب الأمر نقلها لمستشفى مجاورة لذا يجب أن تجلب المال معها أو ربما اصطدمت سيارتها عند ذلك المطعم وستحتاج للمال لتعويض الطرف الآخر عن الأضرار الناتجة ما دام الموقف يفرض عليهم التدبير... توقعات أخرى هاجمت أفكارها وأثرت على تركيزها الدائم في قيادة السيارة، لتفشل كل هذه التنبؤات البريئة بعد وصولها المباغت لموقع الحدث ورؤية صديقتاها يضحكا كراقصات العروض الروسية السنوية الصيفية.

فألتفتت لها السيدة الفاضلة سلمى حتى تدعوها لتصفية ذهنها من أثر الصدمة:

- اتأخرتى ليه يا نوڤو؟، تعالي أقعدي جنبي.

ظلت تحركات نيڤين ثابتة... دمية غير قادرة على الرد، لتكمل سلمى:

- تعالي يا بت مالك في إيه؟

تدخلت الصديقة الثانية:

- أنا آسفة يا نوڤو كان لازم أعمل كده... لو كنت قلتلك ع الحقيقة ماكونتيش حتيجي.

فخرجت الكلمات من فم نيڤين وكأنها تخترق وجهها متسائلة:

- هو إيه اللي حصل؟

ضحكت الصديقتان للحظات، فأردفت الثانية:

- أنا والبت سلمى طلبنا عصير زي كل مرة، بس نفسنا هفت على شيشة إصراحة... فجبناها.

لتداعبها سلمى في مرح:

- الراجل لبسنا الحساب وغفلنا، حتى شوفي ولاد الحرامية... مية خمسة وتسعين جنيه وهي ماتكايفش عيل عنده سبعتاشر سنة.

صمت نيڤين وهي تحدق في ورقة الحساب جعل النادل الذي يتابع ما يحدث منذ وصولها مستعد لسماع صرخاتها ولكنها خذلت تكهناته، فتنفست بكل هدوء وقالت:

- أنا حقوم أحاسب الراجل، خليكوا هنا أنا راجعة.

فوقفت سلمى ناظرة للشريكة الأخرى:

- شايفة يا وفاء، شايفة يا بت العشم.

ثم أمسكت برأس نيڤين لتقبلها:

- حبيبتي يا رجولة، ده أنتِ عِشرة بيوت والله.

والفنانة البارعة وفاء أيضًا لم تحرم نيڤين من حنانها... فأحتضنتها ساخرة:

- أنتِ أجدع من أمي... وأشرف منها كمان.

تعالت ضحكات المغفلتان ولكن المخدوعة ظلت صامتة حتى أشارت للنادل بيدها كي يتبعها بعيدًا عن الأنظار، هذه الإشارة لها دلالة وتوقعه أنها خطة انتقام وبالفعل لم تخذله هذه المرة ففاجئته بطلب جديد يتكون من ثلاثة وجبات من الدجاج الممزوج بالمكرونة الملفوفة ومعها شرائح من الخس وصلصة صفار البيض والخل والزيت ثم أكتفت بذلك وأعطته عنوان بيتها كي يرسلهم... وقبل أن تتركه أشارت له مرة أخرى ليتحرك معها تجاه باب الخروج مؤكدة عليه أن ثمن تلك المطالب سيُضاف على ثمن ما أخذته صديقتاها.

فتحت نيفين الباب ثم ألتفتت إليه محذرة:

- آاااه... وخلي بالك لو الOrder وصل وما إدفعش تمنه مش حاخده... أنا بأكد عليك أهو وزمايلك شاهدين.

ليؤكد لها النادل البراق متقنًا أداء المخبر البوليسي الخبيث من الدرجة الأولى:

- طبعا حضرتك، ده إتفاق... بس يا ريت تأكديلي على العنوان تاني.

ابتسمت وأخرجت ورقة من حقيبتها وكتبت المعلومات المرغوبة بعناية فائقة وخرجت في كل ثقة عازمة على أن تعطي إحدى تلك الوجبات لزوجة حارس العمارة التي تدافع عنها دائمًا أثناء استهزاء الأخير بسمنتها يوميًا.

حيلة الميراث

تجمع الإخوة هذه المرة ليس بإجباري ولكن من المستحيل تجاهله، المناسبات الدينية فقط هي ما كانت الرابط بينهم أما المناسبات العائلية الكل كان يتغافل عن حضورها... محامية مخضرمة، الأسرة تعتبرها صديقة مقربة للجد وزوجته وأيضًا للأب والأم ولذلك ألتف حولها الابنتان والصغير الذي أصر على أن يبعد طفلة أخته الوسطى عن هذا اللقاء حتى لا تستمع لما يُقال رغم حبه إليها.

افتتحت الكبيرة هذه الورقة التي ستحدد أحقية كل من الثلاثة في ميراث سيقطع الصلة بينهم حين يُقسم كما أرادت الأم قبل وفاتها، وقالت:

الإعلان الوراثي للسيدة أُلفت كرم الله حسين

بناتي الجميلات وابني المهذب، أتمنى ألا تقطعوا زيارتكم لقبري أنا أو والدكم... فالوحشة إليكم يصعب تحملها يا قرة عيني... فلنبدأ لعرض ما أتيتم إليه:

- أولًا: الأسطر التالية يجب تصديقها أمرًا لأن الدليل على صحة ما أعلنته إليكم يكمُن بين هذه الأحكام التي تتخفى في قلوبكم

ولكن كما تعودتم، لن يبوح بها أحد وقت مصارحته لغرائزه... متيقنة من واقع خبرتي أنكم ستصدقون، فلذة الثراء تتأصل في شدة اللحظات التي ينهمك فيها المرء لإثبات مرارة ما لا يتمنى.

- ثانيًا: إن كان لكم أصدقاء استعمَروا جزءًا من صفاتكم وأبعدتكم الغايات راسلوهم مجددًا حتى يتذكروكم حين ترحلوا عن أعينهم... لذا اجعلوا لباقة المرح مبتغاكم سويًا أثناء لقائكم، فغالبًا ثلاثة أضعاف الوقت الذي مر وأنتم غرباء عن جوارحكم العاطفية ستكون هي المسافة المحددة لرؤية هوية رفقاء الحياة.
- ثالثًا: لا تبخلوا على أنفسكم بفترة التمعن في جمال ودلال من تتوقعون الفوز بهناء أفعاله فقط عندما يعاتبكم بضحكته.
- رابعًا: تمسكوا بتلك الساعات التي تقضمونها مع خليل يتميز بخفة الظل التلقائية وحدثوا من حولكم عن كل الأفعال المختلة التي نفذتمونها من قبل.
- خامسًا: لا تجعلوا الخمول يسيطر على تريثكم عند سماع حواديت الكبار، لو بخلوا عليكم بفضل مميزاتها ما كانوا أخبروكم بفتور رهبتهم لاستكمال نجاحهم.
- سادسًا: ابحثوا عن ما يُثير الطمع في نفوسكم لكسب المزيد من المشاركات المعصومة من الضراوة واعلموا أن

بلوغ الراحة النفسية ستغنيكم عن إصابات الجسد اليومية، فلتستبشروا خيرًا بما نالته أيديكم لعل حظوظ الحياة تكافئكم.

- سابعًا: روح المتعة بدقائق تجمعكم هي ما أعطتني دائمًا السبب الأجدر لتحمل بقائي وحدي حين تركتموني، فلا تغفلوا عن ابتساماتكم.
- ثامنًا: التركة ستوزع كالآتي: العمارة المخصصة للعائلة ستمتلكها ندى (الوسطى)، فداني الرمان سيمتلكها جاسر (الصغير)، الڤيلا المُطلة على الشاطىء ستمتلكها ياسمين (الأكبر عمرًا)... لن يتم التصديق على ما سبق إلا بعد أن يستغنى كل منكم عن جزء من وقته الزائل لزيارة الآخر ثلاثة مرات في السنة مصطحبًا معه عائلته الكريمة، ومن الأفضل أن يكون مكان الالتقاء في إحدى هذه الممتلكات المجهزة لاستقبال الأحبة المغرورون... بند استلامكم لحقوقكم سيُفعل فور ضمان تنفيذ هذه الشروط للسيدة المبجلة زينب رضا.

تأفف الإخوة باحثين عن حلٍ لتفادي هذه الأوامر التي حتمتها عليهم والدتهم... السخرية هي رد الفعل الأنسب إليهم في هذه اللحظة، لتضحك المحامية بعدها للحظات ثم تقف متأهبة للخروج حتى تترك لهم الفرصة في إيجاد الحل الأوقع لإثبات ما توقعت صديقتها أنهم سيعجزوا عن الوصول إليه بعد رحيلها.

وقبل أن تخرج من البيت تبعتها ابنة الوسطى محاولة معرفة الطريقة الأمثل للخروج من هذا المأزق:

- أرجوكِ قبل أن ترحلي، أخبريني... ما هو الحل؟

قبلت السيدة رأس هذه الشغوفة وقالت:

- عجرفتهم ما تسوقهم، فجدتك طلبت مني أن أجد الطريقة الأمثل حتى لا تنفصل الأرحام عن بعضها.

سكتت لبضع ثوان وأكملت مبتعدة:

- وها هي.

رحلت هذه الخبيرة بعد أن ألهمت الفتاة بذروة حل هذه الحيلة الذكية التي ستعوض أقاربها عن شروط التنفيذ... عبارات الغضب أحدثت شللًا لصلابة قدراتهم على التصرف في مثل هذا المأزق المباغت.

فدافع العصيان أثار الابن الأصغر:

- لن أنفذ هذا الطلب... شروط مزيفة.

لتقول الوسطى:

- لا، هي ليست مزيفة... هل تستطيع إثبات عكس ذلك؟

في هدوء تام تدخلت الكبرى:

- ابحثوا عن الحل، لا داعي لاختلاف الرأي ما دمنا نجهل الوسيلة.

ليضحك جاسر:

- أنا سأسافر للخارج، كيف سنضمن لهذه المجنونة أنني سأزوركم؟

تنهدت ياسمين، وسألته:

- وما الذي يمنع رجوعك إلينا مرة أخرى؟

- سأستغنى عن جزءٍ كبير مما ورثته حتى أستطيع أن أسافر... فلن يعود هناك ما سيُجبرني على العودة.

- استعر بعض الأموال من أصدقائك ولا تبع شيئًا.

لم تتمالك ندى أعصابها، فصرخت:

- لا يوجد بيننا من يريد أن يتواصل مع الآخر... فلنطمس هذا الهراء بإنهاء هذا اللقاء.

رد الشاب ساخرًا:

- حسنًا، ننتظر موت محاميتنا.

- بالطبع لا... هي فقط من تملك الحل الأنسب.

لحظات وصاحت النجلة مبتسمة:

- أمييييي، أنتم أغبياء.

وقبل أن تقترب ندى منها لتعنفها ابتعدت الصغيرة، قائلة:

- الحل معي.

فتوقفت الأم ونظرت لإخوتها ثم ألتفتت في تربص:

- وما هو؟

لتقف الابنة على الكرسي الأمامي:

- أن تدمجوا كل هذه الممتلكات سويًا حتى تضمنوا للأستاذة زينب صديقة جدتي والمحامية الأمثل في القرن الواحد والعشرون أنكم حققتم ما تمنته المغفور لها حبيبتي.

صمت الجميع كي يستوعبوا مجريات هذه الفكرة، أرادوا أن يتهربوا متمسكين بحقهم في الاستقلالية عن رباطهم إلا أن الحكم لا حق لأحد أن يشكك في صحته ورصد تنفيذه... فرجاء الأم الرفيع الذي وصفه زوجها من قبل بالرؤف في حِدته كفل إليها نجاح خطتها مع صديقة العمر للحفاظ على نطاق نسب من كانت تبكي عند فراقهم.

وما حقًا زهدت الأخت الكبرى عند التمعن فيه هي تلك المؤشرات التي وجهتها إليهم المتوفاة، كان يجب أن تطغى مشاعر الحنين عند سماعهم ما كتبته بيداها المرتعشة ولكن أفضلية متطلبات النفس فرضت عليهم ألا يعطوا لقلوبهم الحق في التغزل بذكرياتٍ جمعت ضحكاتهم وآمالهم معًا دون تكلف... طفلتان يشبها بعضهما وولد صغير شعره ناعم يركضون في حديقة جميلة وهدفهم الأول هو نيل الفرحة من فم الطبيعة، لتمر السنوات ويبقى الهدف ثابت مع تغير الغايات الشاسع فأصبحت الضراوة الممر الأمثل لحصد ما انتظروا موت حاملتهم من أجل تملكه.

على الفور نفذوا الفكرة رغم قيودها وذهبوا إلى من سيوثقوا عندها خططتهم في اليوم التالي بعد أن سهر كل منهم طوال الليل ليتفكر في

الاستقرار على اتخاذ الخطوة المُلفتة نحو تصرف منبوذ.

- إمضائكم على هذه العقود الرسمية يمنح لكل وارث حق التصرف في الممتلكات ما دام الاثنين البقية لن يتضرروا، وسيوافقوا على ما يود فعله

السيدة زينب كانت صارمة في حديثها حتى لا يحاول أحد منهم الانحراف عن ما اتفقوا عليه، لحظات وتركتهم في مكتبها لتلتقي أنظار الإخوة في خبث يُرهب القلب وهنا أحست الوسطى أنها لن ترى أخاها مرة أخرى، شعور لم يطرق على بال ياسمين لأنها كانت تجهز خطة صغيرة ستحافظ من خلالها على نصيبها المُعرض للانتهاك... وما أن ابتعد الجميع عن مواجهة بعضهم لمدة أسبوع، فوجئت ندى بجواب مقدم إليها من شخصٍ غير مألوف في زيارة مخيفة ستتأكد من خلالها ما ظنت أن شقيقها تغاضى عن فعله.

ففتحت الورقة الملونة وانغمست عيناها في الأحرف بحرصٍ شديد محاولة التعرف على صاحب هذه الكلمات:

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ: ٢٧/ ٧/ ١٩٩٦م

المدينة: الإسماعيلية

إلى: ندى محمود الجوهري

السلام عليكم أيتها النفيسة إلى قلبي،

أعترف لكِ أن غيابي المقصود لا يعني أنني سأتخلى عن التقرب إلى ابنتك المزعجة لاحقًا كي أنعم برؤية وجهها الملائكي... بدونكم جميعًا سأفتقد الاطمئنان الذي وفرته لنا أمي منذ الصغر ولكن كما نصحنا أبي من قبل، ظروف الحياة أحيانًا لا تعطي لصاحبها الحق في مراعاة من حوله... هذا الرجل الماثل أمامِك الآن أصبح شريكك أنتِ ومحبوبتي ياسمين بدلًا مني، للأسف كنت أحتاج للنقود التي عرضها عليَّ... فهي تكفي لي كي أحقق كل ما عجزت عن الوصول إليه وأنا بينكما... أعلم أن هناك بند في العقود التي أبرمناها سويًا ينص على أنني لن أستطيع بيع الجزء المخصص لي إلا بعد موافقتكما.

نعم، استنتاجك صحيح... أنا بذلك تعديت على الاتفاق الذي شهدت عليه المحامية الصارخة زينب، ويمكنكم إبلاغ الإدارات القانونية عما فعلت... أما هذا الطرف الجاهل عن اتفاقاتنا سيكون أول المتضررين، ولو حاولتا أن تمنعاه عن التصرف في حقه العُرفي سيسلب منكما العديد من الأموال كتعويضٍ لما تم خداعه فيه... أرجوكِ يا أختي الشفوق تقبلي اعتذاري، نعومة الرمال أحيانًا تخترقها الثعابين المدفونة لتغدر بمن هو سائر وحيدًا فتأتي الرياح لتطيب شقه وتجذبه معها ليتطاير معافيًا نحو السُحب الزائغة.

المُرسِل: جاسر محمود الجوهري

عنوانه: إحدى الدول الأوروبية

زلة لسان

استيقاظ مفاجىء جعل الأب ينتبه لنسيم الهواء الذي تسرب من بين أنفاسه ولكن أيضًا بعض الأوراق المتطايرة كانت لها يد في إجباره على ترك غطاءه الحرير وتجميعها مرة أخرى... وقف بجانب غرفته باحثًا عن أهل البيت فتذكر موعد تدريب الباليه الإلزامي لبناته والذي تتولى أمره والدتهم الصارمة في الحفاظ على مواعيد حضوره، تكرر الحدث واخترق النسيم أنفه مرة ثانية ليتحرك نحو الشرفة منتظرًا ما يمكن أن يلفت انتباهه من الطريق بعد أن خطفت السماء نظراته بصفائها في تلك الساعة التي أعلنت عن حضور الليل بقمره وعن خطوات الطيور العائدة لبيتها.

الإحساس بطمأنينة النفس لم يحرمه من الابتلاء بجيرة ذلك النوع من الأسر التي يحاول البعض تجنب الاحتكاك بها حتى وإن كانت تربطهم قرابة، فحكاياتهم تفشت بين عائلات الحي ليس لأنهم مهتمون بنشر تفاصيلها ولكن بسبب أحدث أنواع الشتائم الملتقطة بينهم عند حدوث أقل المشكلات.

قرأ كثيرًا عن أساليب المراقبة وتربى على عدم التأثر بتلك الصفة ولكن صوت الزوجة (جارته) كان أعلى من المتوقع ففقد قدرته على التحكم في فضوله وكرس تركيزه للاستماع بأذنيه من شرفته وكأنه يقف على باب غرفتها:

- بنتك بتستهبل، وبتضيع فلوس الدروس مع صحابها وأنت عاملي فيها أطرش.

استنتج الأب أنها تُحدث زوجها تعيس البخت، فضحك منتظرًا رده الذي لم يتأخر كثيرًا:

- ما هي تربيتك أنتِ... هو أنا اللي كنت باخدها على دماغي وأروح أقعدها مع صحابك الصيع.

- أنت عايزني أشيل كل حاجة على دماغي... مش كفاية الألفين جنيه اللي أنت ضيعتهم، الله يخربيت غباوتك.

شعر المستمع بهاجس الإحراج الذي اجتاح الزوج ولكنه لم يعط لها الفرصة حتى تنتصر عليه:

- وإيه دخل الحوار ده بموضوع البت دلوقتي... وبعدين أنتِ مالك هي كانت فلوس أبوكي.

انتهت الخطبة فربما ابتعدوا عن الغرفة المطلة على بقية الشرفات فأغلب الجيران وإن لم يكن جميعهم تعودوا على الإصغاء لتلك الحوادث... والأيام بها الكثير من الصدف المتكررة بين الأب والزوج، مقابلاتهم كانت عند موقف الأتوبيسات العامة ولكن الزوج كان وجهه مميز بين كل من كان ينتظر، فعلامات التعاسة وغلظة الصوت أدت إلى الانطباع الثابت لدى الجميع عنه... وحتى عند التقائهم وقت صلاة الجمعة كان الأب يُفضل عدم الوقوف بجواره متجنبًا فضوله الذي

سيحثه على التساؤل فيما لا يخصه وتخيل فجأة أن الزوجة ستلاحظ هذا التطفل المتعمد وستستغل هذه الفرصة لسبه كنوع من التغيير.

يومان من العمل المتواصل لا بد أن يتبعهم ثماني ساعات من الراحة... فور وصول الأب لبيته تابعت أذناه صوت صريخ الأم ولكن هذه المرة كانت المواجهة بين ابنتها:

- أنت بتعملي كده ليييييه؟... مش كفاية الكلية الهباب اللي دخلتيها، كمان عايزة تسقطي.

فصرخة الابنة كانت أشد وألتهب الوضع بعد أن أغلقت باب الغرفة:

- يا ماما هو كل شوية خناق وخلاص... ما صحابي كلهم بيروحوا وبييجوا

- صحابك كلهم ولاد عورمة، هاتي نمرهم دول عايزين يتربوا.

- خشي جوه وابعدي عني... كفاية اللي بينك وبين جوزك.

يبدو أن الصراخ ليس الوسيلة الوحيدة للعراك فصوت ضربة الزوجة بيدها جعل الأب يشعر بآلام الابنة المعتوهة:

- مافيش نزول ومافيش موبيل... أنا حوريكي يا صرمة، أنا حوريكي.

بغض النظر عن ما تفصحه الزوجة من فضائح فرأي الأب لم يُحدد بعد لأنه لا يملك الحق في الحكم على عائلة جاره ولن يجازف بفضحهم حتى لا تصيب أسرته مثل هذه الأحداث المخربة لسمعة

من أعتنق بنسبه... وقف يتأمل القفص المعلق بجانب نافذة شرفة المتضررين ويتابع مقاومة الطائران المحبوسان بداخله بعد أن فقدا الأمل في الإفلات من بين ألسنة الشياطين المتحكمة في أهل ذلك البيت والتي طمست تغريد هذين الصغيرين.

لم يتغير الكثير والخجل ليس في الحسبان، هاتفها بين قبضتها وصوتها يعلن عن آخر الأخبار:

- أخدت منه الفلوس بطلوع الروح، العباية والشنطة كانوا عاجبني... كنت حموت عليهم، ده راجل غبي وربنا غيري راكبين العربيات وطول النهار بيتفسحوا.

توقع أنها تتحدث لصديقتها وتوقع أيضًا ما كانت تقوله أثناء استماع الزوجة إليها بعدما أكملت:

- وكمان ضيع ألف ونص على جهاز الشغل، ولا بيستخدموا ولا نيلة... كان زماني جبت العقد الدهب وفرحت نفسي بيه، أههههبل ما يعرفش يمسك قرشه.

ظل الأب على موقفه وأراد ألا ينتقد هذا الوضع لأن تلك التصرفات لم توضح له بعد ما هي الحالات التربوية التي طاردتها منذ الصغر وأدت لفتاة رقيقة أن تصبح زوجة لا تتخذ من الستر مطلب تحافظ به على زوج أبله وابنة لا تعترف بمعنى صفة الحياء التي تُزين جمال كل شابة... الزوجة غفلت عن مبدأ كرامتها، لم تستعب أهميته

أو ربما تفهمته ولكن حين فقدت عامل الحب الذي يوضح لها قيمة حضور مرافق الحياة وليس مرافق المضجع.

استمرار النزاعات انقطع فجأة ولمدة شهر بالرغم من تسليتها المجانية لسكان العمارات المتشوقين، حتى أصابهم الخبر المؤسف وأولهم الأب بعدما استفسر من إحدى بائعي الأطعمة عند متجره المقابل للبيت:

- عم رضا، بقولك إيه... هي الست اللي كانت بتتعارك مع جوزها مرتين في الساعة ديه راحت فين؟

- يااااااه، ماتت من أسبوعين يا أستاذ حربي.

اخترقت الكلمات صدره وبكى متألمًا، شفقةً على تلك السيدة التي لم تحصل على الفرصة المناسبة لتنقش ذكريات أفضل في أذهان من سيذكر سيرتها فيما بعد... شعر بدافع إنساني يحثه على الذهاب لتعزية جاره ولكن الابنة كان لها رأي آخر بعد أن قطع خطواتها عندما لمحها تمر بجانب دكان المنظفات:

- سلام عليكم، البقاء لله في والدتك... أنا لسا عارف من قريب عشان كده ما..

أوقفته عن الحديث بتحركات يدها ونظرات عيناها المستهزأة:

- هو مش أنت اللي ساكن في العمارة الجنبنا؟

أدار رأسه مجيبًا بالموافقة على ما تقول، فأكملت:

- أنت زهقت ولا إيه، ماعدش في حاجة تسليك وأنت واقف في البلكونة... مش كدة برضو؟

- ءءءءااه، أنا ماكنش عندي النية والله بس..

قاطعته للمرة الثانية:

- ادعيلها واختشي، أنا والمرحومة عارفين إنك كنت بتبوص عليها وهي بتغير... بس هي ماردتش تقول لمراتك عشان بيتكم مايتخربش زي بيتنا.

لم يستطع أن يبقى ناظرًا إليها، فتسأل متوترًا:

- هما كانوا يعرفوا بعض إزاي؟

ضحكت الابنة قائلة:

- من البلكونة برضك.

سكتا للحظات، فأردفت:

- ماتروحش لأبويا أحسن، ولو طنشت كلامي وحبيت تعزيه... أنا حقوله اللي كنت بتعمله.

تركها قبل أن تكمل وابتعد مسرعًا تجاه بيته محاولًا التخفي عن الأنظار بالرغم من جهل الجميع بما كان يفعل ولكن والدة بناته امتلكت قرون استشعارية كعضو زائد في جسدها جعلتها تتكهن سبب رعب الزوج.

فاقتربت منه بكل هدوء:

- مالك؟ الشغل برضو؟

نظر إليها متأوهًا:

- مافيش، مافيش حاجة.

ابتعد عنها قليلًا، ثم قال:

- هو أنتِ كنتي تعرفي الست اللي كانت ساكنة قدامنا؟

- آاااه، الله يرحمها بقى... هي كانت شرشوحة بس على نيتها والله.

ثم تركته لتجلب الطعام ولكنها توقفت وألتفتت إليه متعجبة:

- بس إشمعنا يعني بتسألني دلوقتي عن الست ديه؟

تنبأ بمجريات النقاش فقرر أن يدّعي المرض، وقبل أن يُلقي بنفسه أرضًا كنوع من الضعف الجسدي الكاذب فاجئته صرخات الأم التي أكد لها شك وسواسها بغموض أمر ما يتكتم عليه حربي... فوسط مشاهدة الأبناء حاول بعض السكان التطلع لمعرفة ما يحدث خاصة بعد أن شعر الجميع بتشابه هذا الأسلوب كثيرًا مع المهارات الصوتية للجارة الراحلة... ومن هنا أيقن الأجرد من الخبث أن الفضائح ستطارده لسنوات حينما زلته عينه لرؤية ما نهى عنه لقمان ولده، ليصبح معقله هو مقر التقارير المشينة عوضًا عن انقطاع الأنباء الجديدة من دار جاره.

جنسية بطل

استأنس بصوت المقرئ صباحًا عوضًا عن ما حُرم منه رغم أحقيته في الاستمتاع بجماهيريته المبهمة، بحث دومًا عن لمعان البريق الظاهر من أعين كل من تابع نجاحه ولكنه لم يواجه تلك النتيجة... يداه ترتعشان من الإرهاق وبدنه يصرخ من العناء ولم ينل أثناء تلك اللحظات هجمات نصيبه الميسر، وتيقن حينها أن نهج دربه سيمنعه من الوصول إلى مكانته الذاهلة في قناعته.

- إيه يا كابتن مالك قاعد كدة ليه؟

أفاق الشاب وألتفت لصديقه:

- لا مافيش يا رزق، كنت بفكر في حاجة... هو المدرب لسا ماجاش؟

- قرب يوصل... الراجل ده أسطورة والله، شوف طلع من تحت إيده كام بطل بس لسا مكمل في الخرابة ديه.

- ما هما كلهم يا بيكرشوا ويشتغلوا موظفين... يا بيسافروا في الآخر.

ضحك الصديق، وقال:

- ماتخافش بكره تكبر ويعرفوا قيمتك، ولما تعجز حيشغلوك في التليفزيون.

- إذا كان أنا واخد بطولة أفريقيا مرتين ورا بعض... محطة الإذاعة نفسها معبرتنيش وأنت تقولي تلفزيون.

- هو أنت مش خدتلك قرشين حلوين بعدها.

فصرخ الشاب:

- وربنا كانوا ملاليم، ما يكافوش ربع اللي أهلي صرفوه عليا عشان أجهز

ليدخل عليهم المدرب الجليل بعد أن استيطنت عليه عقلانية الحكم على الصغار حتى قبل إستلام مسئولياتهم، وضع حقيبته فى الجانب وجهز أغراضه اللازمة ليبدأ في ممارسة عمله وهو مفعم بالحيوية... فلم يكن هذان الشابان يجلسان وحدهما بل هناك عدد قليل من اللاعبين الزملاء ينتظرون معهم وكل منهم متحمس لتكرار ما تعلمه في الأمس.

ألتفت إليهم هذا الخبير المنضبط في حزم حتى تجمع الكل حوله، ليبدأ بإعطاء كل منهم الأوامر المقصودة لطريق النجاح:

- مش معنى إن أنا إتأخرت ربع ساعة، إنكم تفضلوا قاعدين مستنيني... الربع ساعة دي ممكن تأثر على مستقبلكم الرياضي كله، وده اللي بيفرق ما بين واحد والتاني لما بيشتغل على نفسه... لازم تعرفوا إن أنا مش حبنيكم، أنا حطور نقط القوة الغامضة اللي في قدراتكم... يلا يا شباب بلاش تضيع وقت وابدأوا تمرين اللياقة... إبراهيم، تعالى بعد ما تخلصوا عشان عايزك.

كل الحاضرين نظروا إليه، فهو ذلك الشاب الذي كان يجازي حظه منذ قليل... لا يملون ولا ييأسون من تحركاتهم بدأوا عازمين على إعطاء حماستهم الحق في دفعهم لكسب اهتمام مدربهم كما يفعل مع صديقهم، العرق يتسرب منهم وكأنه دين يسددونه ولكن سعتهم لاستقبال المزيد من الخبرات لم تعد كافية بعد ساعتين من المران.

انتهى إبراهيم معهم محاولًا توقع ما سيبلغه به معلمه المتمرس لما قدمه من مستحيل يصعب على المحظوظ معاصرته... إلا إن كان الأمر محض صدفة:

- خير يا كابتن، حضرتك عايزني ليه؟
- تعالى... في راجل من المسئولين في الإتحاد حنقابله النهاردة.
- كل سنة بيجيلنا واحد جديد ولا بيعمل أي زفت... وكلهم بيتنططوا علينا كمان.

ابتسم المدرب له عاجزًا عن عتابه، فربت على كتفه وقال:

- مالكش دعوة بالكلام ده، ركز في تمرينك وخلاص... هو حيوصل كمان ساعة.

لم ينسَ هذا المكافح مهمته الأولى لتوطيد قدمه في بداية حملته لخطف بعض الأسطر في سجلات عمالقته الشاهقين، كان عليه أن يحصل على الأوراق الإجبارية للإشتراك والتأييد الرسمي كلاعب للمنتخب المصرى في الألعاب الفردية... رافقته أمه في تلك الخطوة

فواجهتهما إهانة الموظفين ورعونتهم في إدلالهما على الرغبات المطلوبة، حاول إبراهيم أن يُبعدها عن المشادات اللفظية معهم بعدما تركوهما لساعات متجاهلين وجودهما ولم يكتف المسئولون عن مقر الاتحاد العُرفي بعزله بل رفضوا أيضا إثبات إنتمائه لغايته... ولولا مساعدة معلمه الخفية ما كان أصبح البطل المغمور.

جميل ذلك النصير لم يعد دينا بل حكمًا من أخلقياته برهان تقديره... ساعة ونصف مرت جعلت إبراهيم يتذكر مشاعر الغضب والحسرة التي أبكته لسنوات حتى وصل أحد أصدقاء أعدائه القدامى، فاقترب منه المدرب:

- أستاذ علاء أهلًا بيك... أقدملك كابتن إبراهيم بطل مصر وأفريقيا لآخر سنتين وبيجهز نفسه اليومين دول عشان الأولمبياد إن شاء الله.

أكذوبة التعالي كانت واضحة في عين الرجل الذي رد بفتور استفزازي:

- أهلًا بيكم... عارفين إيه المطلوب ولا لسا زي ما أنتم؟

تأكد الشاب من دافع الاحتقار العلني، فأبعد وجهه للحظات ثم نظر إليه متسائلًا:

- تمام، إحنا عايزين نعرف المكان الجديد اللي حندرب فيه حيبقى فين؟

ضحك الرجل في سخرية:

- مكان إيه يا ابني... مين قالك أصلًا إن في حاجة زي ديه؟

فأوقف المدرب إبراهيم عن الحديث وقال:

- من غير ما حد يقولنا، أي لاعب دولي في الدنيا بيبقى ليه تجهيزات لازم تبقى متوفراله.

- مين اللي مأكدلك الكلام ده أنت كمان؟

لم يعطوا للرجل فرصة للجدال، فأكمل إبراهيم:

- حضرتك البطولة اللي فاتت اللاعيبه الأجانب كلهم كانوا جاهزين ومعاهم كل الإمكانيات والآلات اللي إحنا أول مرة نشوفها... وده كله غير المنافسين العرب اللي اتجهزلهم الخدمات اللي إحنا برضو ماشمناش ريحتها حتى... وبالرغم من كده أنا اللي كنت بكسب بالعافية.

شن عليهم هو الآخر هجماته مدافعًا عن حقه في إهانتهم لتعطيله عن ما لا يفعله:

- أولًا، اللاعيبة التانية دول كبار ومتمرسين... ثانيًا، الإتحاد معهوش فلوس كفاية يضيعها على الإمكانيات اللي بتتكلموا عنها... ثالثًا، اللي أنت بتقول عليه لازم يبقى مكتوب في طلب رسمي ويا يتقبل يا يترفض

تنهد المعلم ليسيطر على كم المساوىء النابعة من غيظه، ورد مسرعًا:

- أيوه يعني حضرتك جاي ليه النهاردة؟

- جاي عشان أتأكد إذا كانت الأوراق سليمة ولا لأ، مع إن المفروض أنتم اللي تجولنا بنفسكم... يومين تلاتة بالكتير وتكونوا جاهزين.

تركهم الرجل خلفه بنمطه الفظ بعد أن قص عليهم أوامره الدنيئة لتسيطر جفوة الإحباط على همة الموفق بثراء حيويته، أعتقد أن كبر عمره سيمنح له أولوية تنبه الكبار بحتمية الاهتمام بأمره أما هوى الحجة المنطوقة على ألسنتهم أكدت له فشل إيجاد من يوفر له المساحة الكافية لاستغلال إمكانياته... توالت الأسابيع حتى سافر مع داعمه الأول ليخوضا معركة جديدة وحدهما دون دعم مُستحق، فثأره في ظل تلك الظروف سيعوضه عن برهة الذل التي أبعدته عن أهله.

***

تعالى صوت معلقي القنوات الفضائية:

(مهمة شبه مستحيلة لفخر الصناعة المصرية)

(ابن النيل جاي بلاد أوروبا عشان يكتب التاريخ)

وازدادت تغريدات مواقع التواصل الإجتماعي:

[#ادعم_البطل... #إبراهيم_بطل_مصر]

[النجم المصرى إبراهيم بركات حصل على الذهبية الأولى للبعثة المصرية]

[بداية موفقة للاعب كادح استطاع أن يرفع علم مصر في سماء النجاح]

***

تردد اسم وطنه كثيرًا وانهالت عليه مباركات أصدقائه ورسائل عائلته التي لم تفارقه طوال هذه الرحلة الوعرة لتشرق البسمة مرة أخرى على وجهه فعاد يأمل بمداومة صبره على ما تخفيه الاضطرابات... وقد كان، قاطعه رنين الهاتف قبل نومه ليجيب:

- آلو، كابتن إبراهيم أنا مندوب من الإتحاد المصرى... بنباركلك الأول على نجاحك الكبير وبنبلغك بأهمية حضورك بكره الصبح إن شاء الله.

سرعة الحديث أصابت إبراهيم بالغضب، فصرخ:

- أجي فين يا ابني أنت... مين معايا أصلًا؟

وضح على صوت المتصل الاضطراب:

- أنا قولت لحضرتك إني مندوب، مافيش داعي للعصبية... لازم أبلغك إن فيه مبلغ معين حيتخصم منك عشان تدعيم المنظومة، خصوصًا إن الخدمات اللي بيقدموها للاعيبة محتاجة دعم.

- دعم مين يا فندم وخدمات إيه؟... وحد الله وإديني أمارة إن حد عملي اعتبار.

- يؤسفني أقولك لو مدفعتش حيطبق عليك عقوبات كبيرة جدًا، دي القوانين واللوائح... ومن فضلك ماتتكلمش بالأسلوب ده.

لم يُكمل إبراهيم هذه المحادثة فأغلق الهاتف وأخبر أباه الروحي بما طرأ، ليُلح عليه الأخير بالخضوع الفوري لضلال ذلك الفرمان حتى يتفادى جشع من أصدروه خاصة وأنه واجه مثل تلك التغطيات الوهمية لإخفاء فشلهم وعندما حاول أن يتصدى لغاراتهم لم تحالفه إمكانية ترأس النزاع وتمت عرقلته في بداية تحديه... فقرر الشاب حينها أن يعافيه من عناء آفاقه إكرامًا لتضحياته الدائمة، وفي غضون ليلتين سافر متجهًا نحو دولة شاذة عن لغته أو حتى ثقافته، وفور وصوله استوقف إحدى سيارات الأجرة التي أرسلته لمقر الاتحاد المسئول عن حرفته وبدون أي مقدمات طلب مقابلة الرئيس الأول لهذه المؤسسة.

دخل إبراهيم المكتب المهيب ثم جلس أمام هذا المسئول الذي رحب به في حضور المترجم الخاص:

- حتى الآن، أنا لم أصدق أنك تريد الحديث معنا.

فأخرج الشاب قلمًا وورقة صغيرة وحرك رأسه كإشارة للمترجم حتى يخبر المسئول بما سيعلنه:

- مستعد أمضي على تنازل رسمي عن جنسيتي، مقابل إني أضمن قبولي معاكم هنا وبكامل حقوقي.

وقف المسئول في حزم ولكنه كان مبتسمًا، ليبلغ المترجم مسرعًا:

- أحضر له وكيلنا الخاص، يجب أن ينتهي ذلك الأمر بحد أقصى غدًا.

فتركهم هذا المستثمر المُحنك وخرج من مكتبه، لم تفشل أي من صفقاته من قبل ولكن هذه المره غنيمته أتت إليه دون حتى أن يفكر في الإقدام نحو التحصل على خدماتها... واتجه نحو مساعده وأعطاه أمرًا بمصاحبة إبراهيم ومعرفة كل الأسباب النفسية والقانونية التي جعلته يترك موطنه ويُفضل أن يخدم جُعبتهم، فقد كان رئيس الهيئة شديد الإيمان بأن السبب لم يكن يتعلق بالجوهر المادي فقط... فطموح المسئول الرئيسي هو محو إخفاقات العوامل الأولية لتجهيز كل رياضي يحتمي بكينونته كقائد لتمثيلهم المستقبلي أمام أحداث التاريخ.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت الأسطورة القمحية محل نقاش جميع الصحف العالمية:

إبراهيم بركات يستغني عن الخزي ويتشبت في أطراف جنسية النجوم خارج مسقط مولده

مهنة الملل

المصير لا زال محدد من القدر فنهج الحياة بالنسبة لزائريها يتغير في لحظات، لذلك لا مفر للساخط على ذلك الوضع المتغير... الصراخ لن يُمنع والهروب لن يفلح لأن المصير صارم ولا يعطي فرصة للاعتراض.

اشمئزاز منصور اتضح على وجهه وتطرق إلى تصرفاته، وظيفة لم يعرف كيف تقدم إليها قبل أيام ولكن هذه هي الوسيلة الوحيدة لاستغلال المبلغ المقدم تجاه المهنة الواجب تنفيذ مهماتها... قابله مدير الشركة عارضًا عليه أوامره ونصائحه التي لم تؤثر على نظرة الشاب المستقبلية لسيرته الإدارية في عمله.

ابتسامة الأستاذ جمال كانت مبشرة، ليقول:

- أولًا أنت لازم تفرح إنك اشتغلت فى مكان زي ده... ثانيًا لازم تحب المجال على قد ما تقدر مش عشان كل ما تحب الشغل كل ما حيديك أكتر لأ، عشان كل ما تحب الشغل كل ما حتستحمل الظروف اللي حتقسى عليك بعد كده.

ضحك منصور مجبرًا:

- طبعا حضرتك، طبعًا... ده أنت زي والدي.

- يا سيدي كتر خيرك... آه وخلي بالك بلاش تعمل عداوة مع حد صدقني التصرفات ديه حتعطلك كتير في مستقبلك.

لينهي الشاب الحديث حتى يُخفي ضجره:

- لو ربنا أراد يا فندم، أكيد حفيد الشركة بقدراتي... بعد إذن حضرتك عشان ألحق أبدأ.

تركه متيقنًا من شعوره الذي لن يتغير ولذلك قرر أن يبادر ويتحدث مع زملاء العمل الرسمي، فتخيفه أسئلتهم عندما يستنتج عدم ائتمانهم لوجوده وبالأخص استفسارات الشك التي تجعله يبتعد عن خطواته التفاعلية... يتودد إليهم ولكن ردود الفعل لا توحي بالاهتمام حتى عند إلتقاء نظراتهم دائمًا تتغير جهة رؤسهم للفراغ المعكاس، ومن هنا اتخذ السكوت حلًا ليتجنب تلك الإهانات النفسية المكلف بتقبلها.

تحرك تجاه المكتب الخلفي للقسم التابع له ووقف حائرًا لا يعرف ما الخطوة الأمثل لإنهاء المهمة المملة، فسمع صوت ثرثرة إحدى الموظفات ليسألها دون مقدمات:

- لو سمحتي، هي الورقة ديه المفروض أسلمها للحسابات ولا أوديها للمدير على طول... فيديني الله يسترها معاكي.

ضحكت هذه الشابة وأجابته مسرعة بكل اهتمام:

- براحة يا عم أنت جاي تشحت... بوص، عليك تروح تطبع أربع نسخ من الورقة ديه وتاخدها وتلزق كل واحدة فيهم في ملف غير التاني وبعد كده واديها للإستعلامات عشان حتلاقى أستاذ عماد بتاع الحسابات قاعد هناك، ولو عوزت حاجة أنا راقدة في المكتب هنا.

أحس أنه سيخبرها بكل ما استغنى عنه منذ قدومه، أعجب بملامحها الطيبة وطريقة حديثها الطريفة وجسدها النحيف المُطمئِن بتحركاته السريعة... توالت الأيام ولكن لا جديد، الحياة تتمحور حول هدف مبهم يبخل أن يسعى في أمره فتسرقه ابتسامة الشابة الصباحية لتحرره من الفروض المعروضة أمامه.

فيتذكر ذلك الحُلم اللذيذ _ امتلاك كاميرا نوع (Nikon) والمشاركة في مسابقات الشركات الإلكترونية العالمية لالتقاط الصور الطبيعية _الذي لم يتذوق متعة إنجازه كلما تطفلت عليه والدته برأيها المسبق توقعه:

- يا ابنى أشكر ربك ع اللي أنت فيه، هو في حد في سنك بياخود نفس مرتبك

لم يقبل أبوه أن تضيع عليه هذه اللحظة ولا يشارك زوجته، فأكمل سيرة الإحباط متحمسًا:

- ماتتأمرش عشان ماتخسرش، كفاية إنك قاعد في حتة

محترمة... أنا لما اشتغلت، مكتبي كان جنب الكبانيه يا ابن أبوك ومافتحتش بقي.

تقاطعهم دائمًا أفكاره فلا يستمع لبقية الجمل التأديبية لأنه أتقنها وأصبح يخلق مصطلحات أروع منها... وقبل أن يخرج من بيته في الثامنة والنصف من مساء يوم غزير بالخيبة تفاجأ بزيارة جده المنقذ لطموحاته منذ الصغر، فأحتضنه باكيًا على تلك السنوات التي ستتسرب أمام عينيه وقلبه وعقله المكتوفين... رفع الجد رأس حفيده وقبلها ثم أمسك بشعره ليبتعدا عن البيت أو بطريقة ما يبتعدا عن آراء أبويه:

- أوعى تكون فاكر إن أنا جاي أبسطك وأصبرك... بأمانة الله، أنا لازم أضايقك شوية.

مسح منصور قطرات الدموع بيديه، وقال ضاحكًا:

- هي جات عليك يا جدو... اشجيني.

- عادي.

- عادي إيه بالظبط؟

ضرب الجد منصور على رأسه حتى يقترب منه:

- عادي إنك تحس بإن عمرك بيضيع، غصب عنك حتحاول تهرب من سكة اتهرست جواها وأنت أساسًا متأكد مية المية إنك مش حتعرف... بس أهو، أديك بتلوش.

توقفا معا ليعطيا الفرصة لكلب كثيف الشعر أن يمر لصديقه، ثم أكمل الجد:

- أنا عارف إن أبوك وأمك بيكرهوك في اللي أنت أصلًا كارهه، دول حتى لما بيخلوك تقول الحمد لله مابتبقاش عارف تطلعها بنفس راضية... طب أنا حسألك سؤال، أنت بتقبض كويس؟

سكت الشاب للحظات، ثم قال:

- بصراحة آه.

فابتعد العجوز عنه ليجلس على الكرسي الخشبي للمقهى:

- حلووووو أوي، استحملني بقى وجاوب على السؤال التاني... تفتكر حتلاقي نفس الميزة ديه في حتة تانية؟

- أكيد طبعًا.

- بس برضو حتلاقي ألف واحد عايز يركن مكانك، مع إن في ألف مكان تاني عنده نفس المميزات.

تأفف منصور في استياء، ثم أكمل:

- فاهمك يا حج وربنا، بس أنا بالشكل ده مش حلحق أعمل أي حاجة مفيدة في شبابي... حتى لما فكرت أحشش، البكره غليت ومالقتش اللي يجبهالي

ضوء سيارة نقل لفت انتباه الجد لعدد الشباب والفتية الجالسين

في الخلف، فتهافتت على العجوز ذكريات حمل الصخور ورائحة العرق الطاهرة أثناء بحثه عن الذات المغمورة... فقال بهدوء:

- اللي أنت مجبر عليه ده شغل مش جواز ولا مرض ولا حتى فشل أنت ممكن تعيشه سنين لحد موتك... صدقني وإمشي ورا دماغك وجنانها.

أحضر صبي المقهى عصير الليمون المنعش للجد دون أن يطلبه ومعه كوب الشاي الساخن لمنصور فهذه هي قائمة طلباتهم المعتادة... شرد الشاب للحظات ثم نظر للعجوز مبتهجًا:

- جدو، بقولك إيه... أنا حتجوز البت اللي معايا في الشغل.

ابتسم العجوز وحرك رأسه كإشارة للصغير حتى يُكمل إخباره بما استجد من مشاعره فقد شاهد في عيناه رغبة المراهق وفي قلبه ثقة الرجال وفي يده قوة صائد الغربان فتمنى له أن تنجح محاولاته في الهروب... لذلك نصائحه كانت سلاحًا يصعب استخدامه، إما باختيار المصلحة الشخصية المظلومة أو بتفضيل الرأي المتفق عليه من كل من لا يملك الحق في إبداء أي أحقية في الرفض.

هدية واتسرقت

شجار وعتاب وصراخ وعقاب... هذا ما كان يدور يوميًا بين الباشمهندس عصام وابنته العاقلة حنان، فأحيانًا حرص الأب يصبح حصارًا وأحيانًا أخرى رغبة الابنة في خوض ما هو جديد يصبح صخبًا لعدم إكتمال رشدها ولكن تظل العاطفة هي العامل الأساسي لإحباط الشعور بالاحتياج المتلازم بين الطرفين حتى وإن لم تتخل قسوة القلب عن غشاء الكبرياء الحاجز بين كل نقاش.

حنان تتفاخر بكيانه أمام الأقارب وتصف أخلاقه المتزنة أمام الأصدقاء وفي المقابل تتمنى سماع رأيه الواضح عن مدى ثقته بها، ليرد هاربًا بالحجة المعتادة:

- وأنا إيش ضمني اللي حوليكي، إضمنيهم وأضمنك... مافيش ضمان يبقى تقعدي في بيتك معززة مكرمة.

فتعيد السؤال بين كل حين ولا يختلف الرد... لحظات من الشرود قطعها صوت الهاتف المنزلي وكأنه يصرخ مستغيثًا، لتتحرك الأم تجاهه مستبشرة بالمتصل:

- أيوه يا عنايات، كلمتي ابنك؟

- مالك يا ماما في إيه؟

كلمات الجدة كانت سريعة:

- لسا شايفة الأخبار مع أبوكي دلوقتي... في أتوبيس إتقلب على طريق أبو زنيمة والمصابين كتير.

صرخت عنايات مرتجفة:

- إيه، الولا... الولا، طب إقفلي لما أكلمه بسرعة.

سبقتها حنان ولكن الاستقبال كان مرفوض مما جعل صراخ الأم يعلو، ليقترب منها عصام في هدوء تام طالبًا منها الاستعانة بالمذكرة التي دُونت بها أرقام هواتف أصدقاء ولده... أحضرتها ووزعت المعلومات على الأطراف الثلاثة، فردود المستقبلين لم تكن مرضية بعضهم لا يعرف شيئًا والبعض الآخر تفاجأ مثلهم ويحاول التواصل بمن في الحادث أيضًا... أما عنايات تعددت محاولاتها المبتكرة حتى استطاعت أن تجلب بعض المعلومات عن المسئولين عن تلك الرحلة ولكن النتيجة كانت ثابتة فلم يكن هناك إستجابة لدموعها.

مر الليل كحرب الشتاء، دقائقه طويلة وساعاته مملة والمتوقع مخيف... لتقف حنان في الصباح محاولة استغلال هذه الأرقام المميزة حتى أتى ظهر اليوم ومعه الإجابة:

- حضرتك هما في مستشفى الأحلام... بمنطقة أبو اللوق.

عشرات الجثامين قد وصلت فمنها المصاب ومنها المتوفي وفي كل مكان انتشرت أسماء الضحايا، على أغلفة الجرائد وعلى أبواب المستشفيات وعلى أفواه المذيعين... ولكن عصام كان يقينه يمنعه من الالتفات لهذه البيانات، قلبه كان يتوسل الخير من فضل الله وعطفه... حتى وصلت العائلة لمقر التجمع وشيئًا ما بداخل الفتاة يؤكد لها حقيقة موت أخيها.

أوقف عصام إحدى الممرضات المتوترة:

- يا بنتي، يا بنتي... أنا أبو واد من الوصلوا ساعة الحادثة، هما موجودين فين؟... بالله عليكي عرفينا.

ردت عليه الشابة مستعطفة لهفته:

- حتلاقيهم في الدور التالت... بس عشان خاطري يا حج اسأل الدكتور ع اللي أنت عايزه وماتقولوش إن حد من الممرضات اللي عرفك، مش عايزين مشاكل.

فتركتهم عنايات مسرعة تجاه السلالم تبكي، قائلة:

- والنبي يا رب أستر... وحياة النبي الكريم لا تستر.

تبعتها حنان ركضًا حتى سبقتها وفور وصولهم ملتقى الأجساد لمحت طبيبًا يحاول الهروب من ذلك الدور، فتحركت نحوه وأمسكت بكتفه وحاصره الأب مرتعشًا والأم وقفت خلفه تردد كل آيات الله التي حفظتها منذ صغرها دون توقف.

تمالكت الفتاة خوفها وأحكمت قبضتها على كتف الطبيب:

- أبوس رجلك... عرفنا الواد فين وبعدها مش حتشوف وشنا تاني.

هذه هي الواقعة الحادية العشر التي يتكرر فيها مثل هذا الموقف بين الطبيب وأهل الضحية... فلم يتفاجأ، فقط أبعد يداها وسألها وهو يحاول الاحتفاظ بدموعه:

- طب قولولي اسمه إيه؟

ليردد عصام الاسم وكأنه ينطقه للمرة الأولى:

- إسلام عصام أحمد الفيومي.

- ثانية واحدة حشوف اسمه في كشف المصابين.

راح يمرر عيناه بين تعريفات الأسر المختلفة حتى انتهى السطر الأخير دون رؤية هذا الاسم... فطلب من الأب أن يبحث عن الأحرف بنفسه عسى أن تمنحهم المعجزة أمل المراد، لأن القلق قد زاره في هذه البرهة بعدما أصبح المسئول الوحيد أمامهم ليخبرهم:

- ءءءءء للأسف هو مش من المصابين... البقاء لله، المشرحة في الدور الأرضي.

قوة صوت الرعد لم تصب في آذان الفريق الطبي من قبل كصوت صراخ عنايات، فذلك ما راحت تفعله وهي تركل الحائط بقدمها

وتقطع في شعر رأسها... أما عصام لم يعد يستطع الوقوف على قدميه فأرتمى بين يدي حنان التي صمتت وتجمدت أطراف أصابعها حتى عن التسبيح والدموع تنهمر على رأس أبيها.

أول لقاء بينهم وبين الجثة لم يكن كافيًا لإرضاء رغبة المتوفي في البقاء معهم حتى لا يتركوه وحيدًا، قبلت أمه قدمه ووضع والده يده على فمه ومنخاره وعيناه أما الأخت أمسكت بيديه محاولة إيقاظه حتى مرت الساعات وحضر الأقارب محاولين إبعادهم عن التمسك بجسده الطاهر.

***

دُفن البدن بعد تهيئته للقاء صانعه وألقيت فوقه الرمال ولكن عينا عصام أختلف المشهد أمامهما فقد كان يرى حامل لقب العائلة، الشاب المبتهج إسلام الفيومي يجري محاولًا الهرب من أفكار والده المقيدة لحريته التي تمنى أن يقضيها معه وحدهما بعيدًا عن أنظار والدته التي كانت تخطفه دائمًا من بين أحضانه لتتمتع بدفء جسده... فسحبت حنان قميصه حتى يردد الفاتحة مع بقية الحاضرين وأطاع أمرها ناظرًا لعنايات التي أرتمت فوق الرمال مخططة لتحريكها بعد رحيل الجميع.

العزاء كان كالمظاهرة، كل أصدقاء طفولته حضروا ورفقاء الجامعة وبعض أساتذته وجزء من مدرسيه، جميعهم لم يبخلوا عليه بدعواتهم حتى حبيبته جاءت باكية راجية من الله أن يعيده مرة أخرى

بجانبها ليضحكوا سويًا... من كان يدخل مستمعًا للقارىء تتمعن حنان في خطواته منتظرة مجيء العديد حتى تتكاثر الأمنيات برحمة الله على شقيقها خاصة بعدما شعرت بتحليق الملائكة حول روح المفقود في قلب أمه.

تكاثرت اضطرابات الأفكار التي كانت تراود الأخت، ألهمها حزنها بالوقوف على الكرسي وبدء الصراخ حتى تنهار نائمة أو الإمساك بإحدى زجاجات المياه وإلقائها على من كان يكرهه إسلام قبل وفاته... فعزمت على فعل ذلك ولكن الجميع قد غادر وتوقف عن البكاء لتنذرها الأنوار المغلقة بمرحلة جديدة من الليل الذي سيمر جالبًا معه ذكريات العراك والحنان بينها وبين من كان يُيسر عليها لحظات الإحباط وقلة الحيلة أمام الفشل.

***

الصور العائلية كانت قاسية فكلما نظرت إليها عنايات ذكرتها بقسوة الحدث وتسلسل آلامه الذابحة لروحها ومع مرور بعض من الساعات المفقودة أصابها الصمت الدائم حتى عندما تهم بالصلاة شفتاها لا تتحرك أثناء الركعات... الذهول المؤلم لاستقبال الموقف انحرف عن التمسك بالشقيقة ومن هنا قررت بعد أسابيع أن تتفهم ما السبب الذي أدى لسرقة عُمر الشاب المزخرف ببهجة طموحه:

- بابا كلمني زي ما بكلمك، مش كل ما تشوفني تدير وشك.

نظر لها عصام، وقال في هدوء:

- وطي صوتك عشان أمك نايمة.

ردت مسرعة:

- أنت ليه سايب الولا مرمي تحت التراب من غير ما نعرف السبب؟

- استهدي بالله وخوشي أوضتك، عيطي شوية... ولما تهدي تعالي نتكلم.

لتقترب منه صارخة:

- رود علييييا... أنت ليه بتعمل كده؟

الصمت كان له الأولوية في إحتواء الموقف خاصة وأنها لم تتناقش مع أبيها منذ حدوث الواقعة... فتنفس الوالد وجاوبها:

- عشان مافيش حل تاني يا بنتي، عشان مافيش إعادة تصليح في القدر... خلاص دول شوية شباب طالعين رحلة وقضاء الله إن الأتوبيس يتقلب بيهم، خلاص مش حنعرف نرجع الحدث من تاني، خلاص الكل سلت إيده من الموضوع.

يصعب مع عقليتها أن تقتنع بهذه الكلمات المنمقة فاستكملت صارخة وعيناها تمتلىء بالدموع الشافية:

- ما هو السلت إيده، أكيد غلطان... نسيبه إحنا بئة ونقعد نُلطم زي النسوان في عزا حماتهم.

فقاطعها غاضبًا:

- آاااه، ومافيش حل تاني... لما الشخص العمر ابني كان متحدد بين إيديه يطلع يقولي دة قضاء وقدر وبكل بجاحة يصرف النظر عن فشل متابعة الإهمال اللي إحنا كلنا متوقعينه ومحدش من العظماء الشرفاء اللي ماليين البلد يفكر يحاسبه... يبقى عليه العوض في روح ابني.

لتخفض الابنة صوتها تدريجيًا، ثم أمسكت بيده وهي تبكي:

- أديك قولتها بنفسك ده كان إهمال... إعمل أي حاجة بئة عشان خاطر روحه اللي اتسرقت زي ما بتقول.

- كان غيري عَرف.

ابتعد عنها حتى لا يُظهر لها مدى ضعف بدنه:

- هو كان هدية ربنا إدهاني... وهربت مني على غفلة.

عنايات كانت تتابعهم وتعليقها كان بالدعاء الكامن في قلبها... فالحقيقة عرضها الأب زاهدًا عن حقه والوالدة المقهورة تقبلتها بعدما أيقنت أنها بالفعل ستُحرم من تلك الهدية التي خسرتها العائلة حتى لحظة موت كل فرد منهم، أما حنان تلهب قلبها فور رؤيتها لاستمالة أبويها لضعف أهليتهم لمحاربة ما فرضه عليهم المتخاذل... فاتخذت من العزلة عن معاشرتهم فرصة لاقتحام بحر المظالم وحدها، ربما المصادفة تكون الحل الذي سيمنح أخاها حقه إن وجدته بين فضائح كل أثمٍ استخف بما نُشل.

ذهبت وحدها إلى مقر الشركة المسئولة عن الحافلات الناقلة للطلاب أثناء تلك الرحلة عسى أن يحاول أحد الموظفين استفزازها فتقتله أو تسخر منها إحدى الموظفات فتذبحها ولكن عندما وصلت، وجدت المبنى قد أُغلق ويقف عند بابه المقيد بالجنازير الحديدية عسكري صعيدي يحتسي كوبًا صغيرًا من الشاي.

فاقتربت منه دون أن تلقي عليه التحية:

- هو المكان دة قفل امتى؟

نظر إليها في غضب:

- من ساعة المصيبة النيلوها من يجي شهر... أنتِ صحفية؟... بقولك إيه، لو جايا هنا تستفسري وتديني قرشين عشان أقولك ع البسمعه من البيه الظابط تبقي فاهمة غلط... أنا راجل بتقي الله في خدمتي.

قاطعته وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

- أنا أخت طالب من الماتوا في الحدثة.

شعر بأنه أصاب جروحها بعد أن ألتئمت، فتراجع عن حدته:

- لا إله إلا الله... أعذريني يا أنسة، أنتِ عارفة الهم الإحنا بنشوفه مطير النوم من عنيا.

- أنا عايزة أعرف المدير بتاع المكان ده فين أو عنوان حد من الموظفين بتوعه

نظر بعيدًا للحظات، ثم أكمل متوترًا:

- شكلك بت ناس ودمك بيغلي على أخوكي... أنا سمعت البيه بيتكلم مع المدير وهما واقفين في الطورقة... إظاهر كدة كان في قرشين حيتصرفوا ع الأتوبيسات وصاحب الليلة ديه طمع فيهم ووزع الباقي ع الحوليه.

فقالت مستهزأة:

- والبيه الظابط يعرف الكلام ده؟

- أكيييد، هما كام شهر والخرابة ديه حتنور تاني... مبلغ محترم يرموه للكبار والدنيا حتمشي.

لترد مستنتجة:

- وفي الآخر يقولوا السواق كان محشش.

استنتاج بسيط وبديهي، فالمعضلة ليست فيما فعلوه ولكن في الحل الذي يجب أن تبحث عنه هذه الفتاة بدموعها الناطقة... لو أبلغت أبيها بما عرفته سيمنعها من المحاولة حرصًا على سلامتها، ولو شعرت الأم بأن هناك شخص ما تسبب فيما حدث لصغيرها ستنقض عليه لتنزع روحه بأسنانها دون الانتباه لذلك القانون الذي لن يقف في صفها ما دامت الدلائل مبهمة... هل سيبقى الوضع كما هو عليه أم ستتبدل الأمور لو استطاعت أن تتقرب للمسئولين عن تلك المؤسسة؟، وحتى لو نجحت خطتها سيتم إسناد الاتهام لموظفٍ أخذ ما يكفيه من المال ولم يعد يدعم رب عمله بالحفاظ على سرية الأمر.

فغموضها أعطى لموقفها المساحة الكافية لإثارة نفوس العائلات عندما أوضحت لهم الواقع المستتر باحترافية شديدة على مدار شهور محاولة إقناعهم بأن دعوات أمها هي سلاحهم الأول... لم يكن العسكري كاذبًا ولكنه أخطأ في تقديره بسبب معاصرته للظلم السائد من قبل، فبعد محاولات عديدة من كل أب لنشر الحقيقية البشعة في الجرائد الشعبية والمواقع الالكترونية التي تبث أحداث الاصطدامات المميتة للشباب وبعد صراخ الأمهات في أوجه المحامين والقضاة ومُلاك تلك العربات، تم افتتاح الشركة المماثلة بمقرٍ آخر وباسمٍ جديد دون أن تتغير الإدارة ودون أن يحاسب أي من العاملين بها فور اتخاذهم التصريح من مسئولي الهيئات الحكومية المعنية بممارسة العمل الشائن أمام العامة لتكملة مسيرة بُنيت على أُسس وتدتها دماء سالت على طريقٍ شهد على موت أصحابها.

المدة فقط أختلفت من شهرين إلى سنة وثلاثة أشهر لتتم تلك العملية وهذا ما فشل العسكري في ترقبه حينما أبلغ حنان قبل مطلع محاولاتها بالتطور الذي حدث جوره بالفعل.

عتاب الصبي

- حدثتني نفسي عن الحنين لما خسرت فلم أستطع تخبئة حزني بسبب ما فعلته بي، خيبتُ أملي وقت صراخي طلبًا لمجيئك فازداد ضعفي بين من تركتني أحارب أفواههم الساخرة ونظراتهم الحاقدة ونفوسهم الحاسدة... لم تخبرني بوسيلة المقاومة لكل من علِم بغياب من يجب أن يقف أمامي وليس خلفي ليحرسني، الشفقة تلتهب في أعين من ينظر إليَّ ولذة التكبر تتملك من ينجح في مساعدتي رغم عدم طلبي لفعل ذلك ولكن وهن مقدرتي عجز عن الإختباء... أدعوك أن تأتي سريعًا والمنطق يرفض حضورك فهذا الطريق أنا من سأسير فيه وأنت من ستستقبلني في آخره، أعتذر لك يا أبي عن ما أُبلغك به ولكنك عدت للمولى قبل أن يبتسم وجهي وتُفتح عيناي ويضحك قلبي لرؤيتك.

بلغ الثالثة والأربعين وخصل شعره طغى عليها اللون الأبيض ففي ذكرى ميلاده قرر أن يقف ليلًا أمام قبر والده... هذه المرة الأولى التي يعاتبه فيها على موته، يعرف أن الراحل كان يود رؤيته بعدما أوضحت الأم له كل التفاصيل الجسدية والروحية لسيدها... عشقته حينما كان يتغزل في ملامحها ولذلك قررت ألا يختلف اسم الابن عن الوالد.

يوسف يوسف عبد الخالق الحائز على لقب صوت الأمل والبهجة بين كل من عرفهم، يختار اتجاه محدد حسبما يميل الشاكي إليه ويجعله يتوه معه في ألغازه حتى يلهمه بالحل الأنسب لمصائبه... وإن مرت الطفلة أمامه وهي تبكي نظر في عينيها ولمس طرف منخارها بإصبعه لتتحرك بجسدها نحوه حتى تستطيع هي الأخرى مداعبته... حين يحدثه الكبار يقنعهم بروعة هذه الحياة التي جعلتهم يعيشون سنوات أكثر مما توقعوا، ويتبع تلك القناعات سخطًا على وحدته بعد موت والدته وسفر خالته وضعف انتباه جده.

- ألا تود أن تأتي معي؟

سأله الوالد محاولًا تفادي أشعة الشمس وهو يبتعد عنه بعدة أمتار، فتصلب جسد يوسف للحظات متمعنًا في جسد وصوت والده كما وصفته له أمه... لم يستطع التحمل، فركض نحوه ليرتطم بصخرة صغيرة قد عرقلته في بداية مجيئه... ليقترب منه الأب ويقول:

- من الأفضل أن تبقى المسافة بيننا مناسبة.

رفع يوسف رأسه وسقطت الدموع من وجهه والصمت لا زال سلاحه الوحيد لاستيعاب ما يحدث، ليكمل (أباه) يوسف عبد الخالق:

- سأذهب معك، أينما تريد... أود أن أرى كل ما حققته أثناء غيابي.

أصاب الابن هذيان بسيط ولكنه تحامل على صحته متيقنًا من أهمية هذا الموقف الوهمي... تحركا تجاه البيت وهناك تفاجيء يوسف

الكبير بجسد والده المُستلقي على الأريكة الناعمة يصفق مع رقصات فتاة لإحدى إعلانات العطور وهو يتمتم بصوت هادىء منتظرًا موته... حاول يوسف أن يقترب من أبيه ولكنه تلعثم في السجادة الصغيرة لأول مرة منذ أن أحضرتها أمه قبل موتها ليكمل الأب تحركاته إلى المكتب العائلي بعدما تشبع من رؤية هيئة الجد.

أحتضن الأب فستانًا كان معلقًا على حافة الباب المتآكل محاولًا استنشاق الرائحة الكامنة فيه عسى أن تثني عليه زوجته بعطرها... لم يتطلع يوسف الصغير هذه المرة لإيجاد حل كي يقترب منه فقرر أن يتابع تحركاته دون أي محاولات لمعرفة حقيقة الأمر الخيالي.

- ممممممم، يعجبني ترتيبك لكتبي التاريخية.

ابتلع الابن ريقه، ثم قال:

- نعم، أمي كانت تتفنن في تنظيمها كل ثلاثة أسابيع.

- أعرف، فقد كنت أراها.

فرد الصغير مسرعًا:

- أين؟

ضحك الأب، وألتفت إليه ليجلس أمامه:

- والدتك توفت منذ ستة أشهر... أعتقد أنك من أصبحت تعتني بكنزي.

- كل هذه الأوراق سيرثها أحفادي وأحفادك، لذلك تُطلق عليها الكنز.
- أن تحتفظ بممتلكات ما لسنوات ليس بالأمر المقبول بالنسبة للكثير يا ولدي.

أغلق الشاب صفحات الرواية التي استعارها من أستاذه بعدما أختطفته اسمها (حقائق المخبول)، توقع أن تتشابه صفات البطل معه فاتخذ القرار مؤمنًا بأهمية اكتشاف ما لا يعرفه عن نفسه ولكن ظهور الأب في تسلسل أحداث العمل ما جعل المتصفح يتذكر واقعة موت والده، فوضع الكتاب في قاع حقيبته وراح يسير متفاديًا الأقدام المختلفة حتى يهيىء لذهنه الفرصة ليرى وجه والده في أعين كل كهل يمر بجانبه... دقائق من الجنون أصابته ليعود لبيته ويُخرج إطارًا تذكاريًا كبيرًا قد أخفاه لأنه كان يتضرع لضعفه باكيًا كلما نظر إليه، ومضى لساعات يصرخ ممسكًا بالصورة التي جمعته وهو ما زال صبي مع بطله الصامد وكأنه يعاتبه على الخيانة الغير مقصودة.

خُرم ونمرة

العديد من الأفواه المتأففة ملأت تلك الشقة الشارهة التي امتلكها أحد أساتذة طب الأسنان القدامى... ثلاثة غرف ومطبخ متكامل ومرحاض بنافذة كبيرة للتهوية، أما بالخارج غرفتان للمعيشة خصصهما المالك لاستقبال المرضى... سعة المكان تكفي لجلوس الكثيرين ولكن براعة الرجل أذاعت للأجيال أنه الأفضل في مجاله، لذلك ازدحمت الأقدام أمام موظفته وانتهى الحبر من قلمها وهي تسجل أسماء أفراد الفئات المختلفة.

من بينهم شاب يافع جاء متأخرًا فأصبح مقيد بالتصنيف الأخير مع البقية وقف بجانب رجل يسبقه في العمر واتضح عليه أن الملل سيدفعه للرحيل فراقبه عسى أن يتفق معه على تبديل دورهما... وفجأة دخلت بكر بيضاء البشرة على الحاضرين واتجهت ناحية الدفتر لتحجز مكانها بعد أن تطاير شعرها برائحته الفواحة على تلك الفتاة الصغيرة المسئولة عن تنظيف المكان وتنظيم الدخول، نظرت للجميع ثم ألتفتت باشمئزاز تاركة العديد من الدقائق المتسربة خلفها... ضحك المشاكس واتبعها ببطء حتى لا يظن أحد أنه سيذهب إليها، ظل يراقبها حتى دخلت مطعمًا هادئًا بالقرب من مقر الطبيب وخمن أنها اختارته لقلة زائريه فنظر لساعته

وقرر أن يتحرك نحوها بعد دقيقة ولكنه عندما نظر إليها مرة أخرى أصابته الرعشة حين وجدها تتمطى وتنظم أغراضها.

فاتخذ خطوته الأولى وفتح باب لقائهما ثم جلس على الكرسي المقابل لها في نفس المائدة:

- مساء العسل.

باغتها بهذا الفعل لتتحول نظراتها لاستياء حديدي، فأكمل المتطفل ضاحكًا:

- طب إيه، خليها سلامه عليكم.

فقالت مستهزأة:

- أهلًا بحضرتك.

- لو مش واخدة بالك، أنا اللي كنت واقف فوق معاكي عند الدكتور.

- لأ... زي ما أنت قولت مش واخدة بالي.

أمسك بزجاجة المياه الموضوعة أمامها، ثم أردف:

- مش مهم... الكتاب اللي قدامك ده شكلك حتقلبي فيه ومش حتقري منه حاجة.

- أااه أده أنت رامي عينك من بدري بقى؟

- أنتِ اللي تصرفاتك تشد أي حد بصراحة.

- مممم... وطبعًا حضرتك بتفهم في النفس البشرية وحتقعد تحلل شخصيتي وأنا أُعجب بيك في الآخر عشان أنت الوحيد في كل اللي اتعاملت معاهم اللي عِرف يفهمني.

رد متعجبًا:

- إيه العبط ده؟

واجهته في تربص:

- مالك؟
- ماصدقتي أنتِ أي حد تشبطي فيه.
- وأنا مش عايزة أعرفك أصلًا عشان أشبط فيك.
- وأنا جاي أسألك على حاجة وماشي.

أخذت منه الزجاجة بعنف، ثم قالت ساخرة:

- ما هي بتبتدي كده أنا عارفة.
- الله، أومال عايزاني أخود نمرتك إزاي؟
- بلاش أحسن، بدل ما أديك نمرة أخويا وأخليه ي...

قاطع تهديدها:

- ييجي يقعد معايا ع القهوة ونظبوطوا عشرة طاولة.
- يا ابني امشي، أنت جاي عايز إيه في ليلتك ديه؟

نظر بجانبه ليفكر قليلًا:

- أستلف منك الكتاب ده.

- أكيد مش حديهولك.

- طب جبتيه منين؟

- معرفش، ده بتاع واحدة صاحبتي.

فارتفع صوته:

- طب هاتي نمرتها.

- يا ربيييي ع الرزلة.

- أصل هي فرصة بصراحة، بت حلوة وقاعدة لوحدها فمش حلاقي خُرم أخوشلِك منه غير بالطريقة ديه.

أبعدت وجهها مبتسمة ثم ألتفتت إليه:

- يعني أنت كل اللي كنت عايزه إنك تكلمني؟

- أبدًا والله... أنا كل اللي كنت عايزه إنك تبوصيلي بس.

- والمفروض أعملك إيه دلوقتي؟

سألها ضاحكًا:

- مافيش حد ظبطك قبل كده؟

- لا والله لسا محدش نال الشرف.

- طبعا، محدش عَرف يتكلم معاكي زيي.
- أيوه أنا بتكلم معاك عشان مافيياش حيل أهزئك

مالت شفتاه لليمين محاولًا تقليد صديقه الفكاهي:

- وربنا ما حتلحقي وأنا وأنتِ أهو.
- سيادتك ناوي تقوم امتى؟
- مش قبل م أعرف حتتجوزي إزاي؟

محاولة التهرب من استفساراته:

- يا ابني هو أنت صاحبتي وجاي تنصحني؟

اقترب منها مبتهجًا:

- ياما أنا لو صاحبتك كان زماني بايت معاكي في نفس الأوضة.

فاستغلت هذه الفرصة وانفعلت عليه غاضبة:

- احترم نفسك، إيه اللي أنت بتقوله ده؟
- ماقصدش سفالة والله... يعني لو أنا فضلة خيرك عنصر من أعضاء الأسرة كنت حفضل قاعدلك.

توقفا عن الحديث لبضع دقائق حتى لا يشتد النقاش ثم استجمع هذا المعجب شجاعته وسألها في تريث:

- لازم أعرف حترطبتي إزاي؟

أجابته بحزم:

- مالكش دعوة.

شعر بالحرج ولاحظ أن زائري الموقع ازدادوا وسمعوا كل ما قد قيل... فأخرج ما في جعبته كي لا تدعه وحده:

- ماشي يا أستاذة، على كده يبقى ربنا يرازيكي بابن الحلال... أنا كنت عايز أقولك بس إنك جميلة شويتين[1] مستحمية يعني... وأنا عشان عارف إن حظي نحس عمري ما حتجوز واحدة شبهك... مش قصدي شبهك في الشكل أنتِ عادية على فكرة، بس قصدي واحدة شكلها كدة مالهاش في الرجالة ومعقدة... أصل كل الارتبطت بيهم كانوا بيقرطسوني وربنا لحد ما اكتشفت إن العيب فيا أنا.

وضعت يدها على وجهها وراحت تقهقه للحظات وعندما أعادت النظر إليه وجدته تركها ليرحل وآثار دموعه اتضحت على المائدة فتابعته بعيناها الضاحكة... ثم نادت على العامل مسرعة:

- الحساب لو سمحت.

نظر لها متعجبًا، ثم قال:

- حساب إيه؟، حضرتك ماطلبتيش حاجة أصلًا.

فلم تجد أمامها غير كتاب صديقتها وزجاجة المياه التي جلبتها معها، لتطلب منه في هدوء:

- آه أنا آسفة... عايزة نسكافيه باللبن من فضلك.

استندت بيدها على الكرسي كي تلمح ضيفها الغريب من الخارج لتحدد الوقت المناسب وتمر بجانبه دون إبداء أي اهتمام له حتى تُثبت لنفسها أنه لم يؤثر عليها... بالنسبة لتجاربها هو يعتبر المعتوه الأول الذي اقتحم حاجزها منذ إلتقائها بهذا النوع من المخلوقات، بدأت تشعر أن ذلك السياج النفسي قد هُدم بعدما اخترقتها الدعابات المتوردة... فقد حذرتها والدتها منذ صغرهها بعزمٍ لا يقاوم من مشاعر القلب الذكري فأقامت سورًا وقائيًا حجزها بعيدًا عن وعودٍ مستعارة ونظرات مقززة، ولكنها لم تصمم ذلك الباب المزخرف الذي سيفتحه حبيبها يومًا ليعيش معها في شهوة الحب الطاهرة... أُجهشت من البكاء في وهلة ثم ركضت خلفه حتى توقفه ولكنه خذلها واختفى بين العشرات من القلوب الدخيلة التي سعت لإرضائها من قبل.

الفهرس